قسم الأدب والنقد

صفى الدين الحلي

وقصيدته

فى مديح الملك الصالح شمس الدين بن المنصور

دراسة تحليلية نقدية

إعـــداد

دكتورة / آمال محمود السباعى

مدرس بقسم الأدب والنقد بالكلية

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله الحنّان المنّان، والصلاة والسلام على سيد ولد عدنان، وعلى آله درة الزمان، وصحبه وتابعيهم إلى يوم السعير والجنان.

وبعد

فقد تناول هذا البحث الحديث عن الشاعر العربى صفى الدين الحلي، وقصيدته الغراء فى مديح الملك شمس الدين بن المنصور ونرجو أن توفق فيها إلى الكشف عما صوّرته من فنون الإبداع والجمال مع إطلاله فاحصة على حياة هذا الشاعر المتميز، وما حوته من أخبار وذكريات ممتعة وثريّة،

واستكشافا لبعض جوانب عصره المتميز وتأثيرها فى الدراسة الغنية لشعره.

والله ولى التوفيق

د/ أمال محمود السباعى

ترجمة الحلى

اسمه ونسبه ومولده:

هو عبد العزيز بن سرَايَا بن على بن أبى القاسم بن أحمد بن نصر بن أبى العز بن سرَايَا، ويعرف، بـ صفى الدين الطائى السنبسى الحلى.

ولد فى ربيع الآخر سنة ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م فى حلة بابل - أو الحلة الفيحاء - وهى حلة قريبة من الموصل[١]، وقد تغنى صفى الدين بهذه الحلة وترنّم بذكرها

مَنْ لم تَرَ الحلةَ الفيحاءَ مُقلتَهُ ... فإنَّه فى انقضاءِ العمر مغبونُ

أرضٌ بها سائرُ الأهواء قد جُمعت ... كما يُجَمَّع فيها الضَّبُ والنُونُ[٢]

القَدرُ طافِحةٌ والريحُ نافِحَةٌ ... والوُرْقُ صادحةٌ والظُّل موضونُ[٣]

مَا شَاتَها غيرُ سَغى الجاهلين بها ... كأنها جنةٌ فيها شياطينُ

ويفهم من شعره أن قبيلته - وهى قبيلة "سنبس" إحدى قبائل طي، عربية عريقة ضمت كثيرًا من السادات، ويمت إليها أبوه وأمه على السواء، وكان لأسرة أمه عصبية بالحلة ممدودة الظل، وأعمال مجيدة جلبت لها جاهاً وحسباً مما أثار حقد بعض لدّاتها ممن ينفسون عليها الزعامة وينافسونها فى الجاه والسلطان.

---

(١) فوات الوفيات والذى عليها / محمد بن شاكر الكتبى بتحقيق د/ إحسان عباس / ٣٣٥ (بتصرف) ط. دار صادر بيروت

البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للقاضى العلامة محمد بن على الشوكانى ٢٣٨ وما بعدها.

(٢) والضب: دابة كالحرباء - النون: الحوت، والمراد بتجمعهما تجمع الأضداء.

(٣) موضون: مضاعف كثيراً - والورق: الحمام، جمع ورقاء.

فاشتعلت بذلك نار العداوة والبغضاء بين الفريقين وازدادت العداوة تأججًا نتيجة لما ورثه هؤلاء العرب عن أسلافهم من مكابرة وصرامة، ومن جاهلية ممقوته لا تهدأ إلا بالدمار والأخذ بالثأر [١].

هذا، ولم تحدثنا المصادر بشيء عن حياته الأولى ونشأته سوى أنه من أسرة ميسورة الحال وأنه التحق بكتّاب القرية فى حداثته فتعلم القراءة وأتقن فنون الشعر كلها ودرس علوم العربية، ولم يحظ فى طفولته بمكتبه تشكل ثقافة مبكرة، تعين على أى معرفة.

يقول الدكتور/ شوقى ضيف فى إطار الحديث عن نشأة الشاعر:

" .. وكان الغلمان من لداته يتدربون على ركوب الخيل فخالفهم فى هذا التدرب وأحسّ فى نفسه ميلا شديدا إلى الشعر، فأكبّ عل حفظ نصوصه العباسية والإسلامية والجاهلية وحفظ القرآن الكريم وبعض الأشعار.. "[٢].

ومن هنا يبدو لنا أنه قد تضافرت عدة عوامل على تكوين الشاعر خلقا وعلما وأدبا فهو سليل بيت علم وجاه، وكان لصفى الدين أعمام وأخوال ذوو مكانة فى الحلة ومنهم الصدر "جلال الدين بن محاسن" وهو أكبر أخواله، تولى زمام الأمور فى البلد فهنأه صفى الدين بقصيدة نذكر منها على سبيل المثال:

فكيفَ ولَمْ يُنْسب زَعيمٌ لِسَنْبس ... إلى المجدِ إلاّ كان خالى أو عمى

هذا، ولما انتشرت الفوضى فى بلاد العراق على إثر الخلاف بين بعض القبائل اضطرب الأمن فى الحلة، ووقع النزاع بين قبائلها

---

(١) من نوابغ الفكر العربى - صفى الدين الحلى - محمود رزق سليم ١٩، ٢٠ ط. ثالثة، دار المعارف.

(٢) عصر الدول والإمارات - الجزيرة العربية - العراق - إيران / د. شوقى ضيف ٣٥٥.

وأدت الأحقاد بين بنى محاسن أخوال صفى الدين وآل أبى الفضل إلى أن يغدر آل أبى الفضل بصفى الدين بن محاسن ويقتلوه غيلة وهو فى مسجده فرشاه صفى الدين رثاء حارا، وثارت لمقتله ثائرة قومه،

وأدى بهم عرق الوراثة إلى الانتقام والأخذ بالثأر وكان فى طليعتهم صفى الدين الحلى الذى كان متحمسا تحمسا شديدا، وذلك لالتفاف الناس حوله فنظم القصائد الملتهبة يشعل بها النار ويستحث قومه على القتال والإيقاع بالعدو[١].

ويبدو أن أعداءه بالحلة أرادوا الكيد له فأقلقوا راحته، وتهددوا حياته، فاضطر إلى الفرار بنفسه واختار ماردين فاتصل بملوكها واستقر بها، ولكنه كان كثير الأسفار دائم التجوال، فكان ينتقل فى مختلف البلدان للتجارة فتارة يرحل إلى الشام، وأخرى إلى مصر وماردين، وغير ذلك مما تتطلبه التجارة من خبرة واسعة بمعرفة البلدان وأثناء الرحلة يمدح الملوك والأعيان، وانقطع مدة إلى ملوك ماردين ومدحهم بغرر المدائح.

ولعل تنقله بين البلدان كان من عوامل انتشار شعره وبخاصة رحلاته بين البلاد شرقا وغربا مما شجعه على المضى قُدُما فى هذا المجال.

كما امتدح أيضا الناصر محمد بن قلاوون المؤيد من سلاطين المماليك[٢]، ومن أمراء الشام الملك المؤيد إسماعيل أبا الفداء صاحب حماة[٣]، ومن الأعيان فى مصر علاء الدين

---

(١) من نوابغ الفكر العربى – صفى الدين الحلى / ٢١، وما بعدها.

(٢) الأعلام، خير الدين الزركلى ج ٤ / ١٨.

(٣) الأدب فى العصر المملوكى / ٢٢٣، ٢٢٤. الأعلام ت / بسّام عبد الوهاب الجابي/ ٤١٨، ط. أولى سنة ١٤٠٧ هـ، سنة ١٩٨١ م.

بن الأثير كاتب سر السلطان[١].

وعند حضوره للقاهرة التقى بجماعة من علمائها، كابن سيد الناس[٢]، وأبى حيان، وغيرهم، وقد أكسبته تلك الندوات خبرة ومعرفة بفنون اللغة والأدب، فاستقى من علمهم واهتدى بهديهم، ويقال: إنهم اعترفوا بما أفاده الشاعر من مجالستهم[٣]، فكان الصدر شمس الدين عبد اللطيف يعتقد أنه ما نظم الشعر أحد مثله، وتلك شهادة تحسب للشاعر، وتدل دلالة قاطعة على أن شعره لا يستهان به، وخير شاهد على ذلك أن الموهبة الشعرية استيقظت فيه مبكرة.

ويجدر بنا أن نورد ما جاء من حديث للشاعر فى هذا الصدد:

"إنى كنت قبل أن أشبّ عن الطوق، وأعلم من دواعى الشوق لهجا بالشعر نظماً وحفظاً، متقنا علومه معنى ولفظا..... "[٤].

وقد ساعده حبه المبكر لنظر الشعر على العكوف على دراسة ما كتبه القدماء من مؤلفات قيّمة وتمكن من الاستفادة

---

(١) وهو أبو الفدا إسماعيل بن على الملك الأفضل بن محمود المظفر بن محمد المنصور بن تقى الدين، ولد فى دمشق سنة ٦٧٢ هـ / سنة ١٢٧٣ م ولقب "الملك الصالح" شارك فى محاربة الصليبين، وكان أبو الفداء أديبا ينظم الشعر ويعطف على الأدب والأدباء كما كان مصنفا للكتب توفى فى حماة سنة ٧٣٢ هـ/ سنة ١٣٣١ م.

(٢) وابن سيد الناس هو فتح الدين أبو الفتح محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن سيد الناس اليعمرى الربعى الإشبيلي، الأندلسي، ولد فى القاهرة سنة ٦٦١ هـ/ سنة ١٢٦٣ م. وقرأ أبو الفتح على عدد كبير من شيوخ الحديث والفقه والأدب، وتولى تدريس الحديث فى المدرسة الظاهرية وتوفى سنة ٧٣٤ هـ / ١٣٣٤ م فى القاهرة.

(٣) ينظر تاريخ الأدب العربي، لعمر فروخ ج ٣ / ٧٤٨.

(٤) البدر الطالع / ٢٤٠ وما بعدها (بتصرف)، الأدب فى العصر المملوكي/ ٣٥٥، والسماة بضم أوله: القوم يخرجون للصيد والمراد بهم السادة والشجعان.
والربوع جمع ربع: وهو الدار، والكهف: الملجأ.

منها، فألف فى الجناس كتابا سماه: "الدر النفيس فى أجناس التجنيس"، وألف أيضا قصيده بديعية فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم تضم أبياتها نحو مائة وخمسين محسنا من المحسنات البديعية، كما وضع صفى الدين رسالة أشبه بالمقامات عنوانها "رسالة الدار فى محاورات الفار": -

وظل حبه لوطنه عالقا بقلبه فقال منه أبياتا يعبر عن شوقه العارم تجاه بلده وأهله:

أَلَا أَبْلِغْ هُدِيتَ سُمَاةَ قومي	بِحلَّةِ بابلٍ عَنْدَ الورُودِ
ألا لَا تَشْغُلوا قلْبًا لبُعدي	فإنى كلَّ يومٍ فى مَزيدِ
لِأَبْى قَدْ حَلَلْتُ حِمَى مُلُوكٍ	رُبُوعُ عبدهمْ كَهْفُ الطَّرِيدِ
فَمَنْ يكُ نازلًا بِحمَى كُلَيْبٍ	فإنى قد نزلت حِمَى الأُسُودِ

وقد خرج من بلدته، ورحل عنها متوجها إلى ماردين، ويبدو أنه أعجب بهذه البلدة، وصادق بعض أهلها، فاتصل بالملك المنصور مستجيرا به شاكيا له مستدرا عطفه.

وهناك التقى بابنه الملك الصالح، وقد لقيه بنو أرتق لقاء كريما حافلا فاستمعوا لحديثه وشكايته، ورفعوا مكانته وقربوه إليهم، ووهبوا له من النعم الجزيلة والمنح الجليلة، ما ألهج بذكرهم لسانه، وأبهج بشكرهم بيانه.

وقد عبر صفى الدين عن سعادته الغامرة بلقاء هؤلاء الملوك أيما تعبير فقال مشيدا بتلك الحفاوة، وقى حسن استقبال المنصور له:

لاقيتنا مَلْقى الكريمِ لضيفه وضَمَمْتنا ضَمَّ الكمى لسيفه[1].

---

(١)عصر الدول والإمارات / ٣٥٦،

ولم يكتف الشاعر بذلك، فقد رأى أن ينظم فيه ديوانا مستقلا أطلق عليه اسم "دُرر النُّحور فى مدائح الملك المنصور".

ومن هذا القبيل قوله:

رَبُّ النَّوال ومحمودُ الخِصال ومِقْـ ـدامُ النَّزال وأمن الخائف الحذر
راعى الأنام بعينى غير راقدةٍ قد وُكِّلتْ فى أمور الملك بالسَّهر
راضٍ مع السوط يُبْدى عزم منتقمٍ للمذنبين ويعفو عَفْوَ مقتدرِ[1]

ولعل صحبته لهؤلاء الناس جعلت منه شاعرا قوى البيان وهيأته لأن يكون شاعر البلاط، وعندما توفى الملك المنصور سنة ٧١٢ هـ وخلفه ابنه الملك الصالح احتفظ الشاعر لنفسه بتلك المنزلة، وبالراتب الشهرى الذى كان يأخذه فى عهد أبيه وظل، يصحبه الأمير الجديد فى نزهاته وخروجه للصيد، كما اتخذ منه الأمير صديقا له، وأنيسا فى مجالس شرابه.

وكان عليه فى سبيل تحقيق مطامحه أن يضرب فى آفاق الأرض، باحثا عن مكان ينبت العز، ويدفع الضيم، ولذلك لم يكتف بتلك الصحبة ففكر فى زيارة بلاد الشام رغبة منه فى العمل بالتجارة، ويبدو أن تجاربه الحقيقية تمثلت فى نظم الشعر والإشادة بكبار القوم هناك، فنزل بحماه ومدح سلطانها المؤيد وابنه الأفضل،

وأثناء وجوده بحماه لا يسعه إلا أن يرسل بمدائحه المبجّلة بالثناء العطر إلى الملك الصالح[2]، وهذا يدلنا على أن صلته بهم كانت أوثق وأرحب من غيرهم.

والبيت يفصح عن الشعور الطيب والولاء الذى يكنه الشاعر للبيت الحاكم.

(١) المصدر السابق / ٣٥٦، معجم المؤلفين - عمر رضا كحالة / المجلد الثالث / ٢٤٧.

(٢) عصر الدول والإمارات / ٣٥٦

وقد ذهب إلى الديار المقدسة لتأدية فريضة الحج سنة ٧٢٣ هـ ومن هناك اتجه إلى القاهرة، فنزل بساحة سلطانها الناصر محمد بن قلاوون.

وفى مصر وجد صفى الدين حفاوة وترحابا واستقبالا عظيما، وتدلنا الآثار الواردة من المراجع التى أرّخت لهذا العصر، أن عصر الناصر بن قلاوون كان من أزهى فترات العصر المملوكى بالرجال، وأغناها بالعملاء، وأحفلها بالأدباء والشعراء والمنشئين.

وقد رحب علاء الدين بن الأثير - كاتب سر الناصر - بمقدم صفى الدين، وقدمه إلى السلطان الناصر، ووقف بجانبه مشجعا له على معاودة النظم، كما اقترح عليه أن يجمع أشعاره فى الديوان[١]، وبالفعل نجح صفى الدين فى جمعها حسب استطاعته، ولكنه لم يتمكن من الحصول على كل أشعار، ولو جمعها كلها فى ديوان واحد لكان للأدب والتاريخ منه حظ عظيم.

ومن بين أبياته قوله فى مدح الملك الناصر: -

يا مَلِكًا فاقَ المُلُوكَ وَرَعًا ... إنْ شَانَ أهْلَ المُلْكِ طيشٌ ورَعَنْ

أكْسَبتنِى بالقُرْبِ مَجْدًا وعلاً ... فصغتُ فيكَ المَدْحَ سِرًّا وعَلَنْ[٢]

وفاته:

توفى الشاعر صفى الدين الحلى ببغداد، سنة ٧٥٠ هـ [٣].

---

(١) صفى الدين الحلى / محمود رزق سليم / ٢٨ وما بعدها.

(٢) فوات الوفيات / محمد بن شاكر الكتب ج ٢ / ٣٥٠.

الورع: التقوى والخوف من الله، والرعن: الحمق والبطش

(٣) المصدر السابق / ج ٢ / ٣٥٠، وما بعدها.

ثقافته:

تؤكد المصادر التى بين أيدينا أن الشاعر صفى الدين الحلى وهبه الله حسا رفيعا، من خلال إطلاعه على عيون الشعر العربي، وبخاصة فى عصور الإزهار كما كان لذكائه وطموحه وموهبته الشعرية الخلّابة ورحلاته الكثيرة إلى البلاد المختلفة ودراسته الواسعة.

كان لهذا كله آثار بارزة فى شعره أعانته على تحقيق ما يصبوا إليه، فاستطاع أن يجارى فحول الشعراء، لا سيما وأنه كان شغوفا بالأدب، محبا لقراءة دواوينه "فمن الضرورى لكل شاعر أن يتزود من ينابيع الثقافة المختلفةليستقيم أسلوبه....."[١].

وقد نظم صفى الدين الشعر فى أغراض كثيرة وفنون متنوعة، وبجانب الشعر له عدة مؤلفات نذكر منها على سبيل المثال:

١) كتاب "الأوزان المستحدثة" مثل الدوبيت.

٢) "العاطل الحالى والمرخص الغالي"، فى الزجل والمواليا.

٣) وألف فى الجناس كتابا سماه " الدر النفيس فى أجناس التجنيس".

٤) ديوان " صفوة الشعراء وخلاصة البلغاء " وهو مختارات شعرية.

٥) النتائج اللاهية " وهو كتاب شرح فيه بديعيته.

وغير ذلك من مؤلفات تدلنا على أننا بإزاء شاعر متعدد المواهب، ولعل ذلك ما جعل الناصر محمد بن قلاوون يبلغ رئيس وزرائه رغبته فى أن يجمع شعر صفى الدين الحلى فى ديوان، ويبوبه، ويرتبه، وأعجب صفى الدين بهذه الفكرة، فقام بجمع

---

(١) فى الأدب الحديث / عمر الدسوقى / ٣١٢.

ديوانه وجعله فى أثنى عشر بابا، تشتمل على ثلاثين فصلا، متضمنة أبوابه الموضوعات الشعرية الآتية:

الفخر، والحماسة، والمدح، والطرديات، والإخوانيات، والمراثي، والغزل، والخمريات، والشكوى، والهدايا، والألغاز، والزهد، والهجاء، كما ضم الديوان مدائح مختلفة للرسول عليه الصلاة والسلام، ولعلى بن أبى طالب رضى الله عنه، وغير ذلك...

وقد ذكر بعض الباحثين أن شعره فى مديح الرسول صلى الله عليه وسلم نظمه فى باكورة حياته.....[1].

هذا ولم تقف ثقافة الشاعر عند هذا الحد، بل حاول الاستفادة من كل علم بطرف وحسبنا فى ذلك أنه نشأ فى الحلة واستمد منها مقومات شعره وشاعريته. هكذا كان حب الشاعر لوطنه، وتلك منزلة الوطن فى نفسه، فحبه لوطنه ظل معينه الذى لا ينضب وخير دليل على ذلك الأبيات التى أرسل بها إلى بلدته يبث فيها لوأعج حزنه منذ فارق مسقط رأسه.

شعره:

الدارس لشعر صفى الدين الحلى يتبين له، أنه قد أدلى بدلوه فى مختلف فنون الشعر العربي، وقد بينا فيما تقدم من خلال هذا البحث أنه تنقل بين بلاد كثيرة، ومدح قادتها ورؤسائها بغرر القصائد، وذلك لشعوره بأنه ينحدر من أسرة تتمتع بالجاه العريض، والثروة الوافرة، ولذلك ظل يتغنى بمجد قومه، ويفخر بهم وبنفسه، ووصف حروبهم وانتصاراتهم، التى حققوها ضد

---

(١) صفى الدين الحلى / ١٩.

أعدائهم[١]، وهذا وذاك يدلنا على أن صفى الدين كان لسانا لقومه، مشعلا لحماستهم، بل أحد قادتهم إلى الثأر والانتقام فارسا مقداما ومقاتلا مغامرا يجول بطرقه ويصول برمحه أو بسيفه، ولذلك نجد شعره فى تلك الحقبة يمتزج بالفخر والحماسة، ووصف الوقائع، فكان صدى صادقا لما يجرى من حوله من الأحداث والوقائع، فيقول:

ولَمَّا أبتْ غلا نِزالاً كُمَا تُهُمْ ... دَرَأْتُ بُمْهرِى فى صُدُورِ المَقَانبِ

فعلَّمتُ شَمَّ الأرضِ شُمَّ أنوفِهم ... وَعوَّدْتُ ثغْرَ التُّرب لَثْمَ التَّرائِبِ

وبجانب المديح نظم العديد من المراثى فى كبار ممدوحيه، أو من أهله أو من أصدقائه، وبخاصة أنه كان كثير الإخوان، وافر الخلان، ويسعى إليه الأصدقاء من كل صوب وحدب، وبينه وبين عِلية جيله أواصر المحبة والإخاء والرثاء من فى فنون الشعر القديمة[٢]، ولكنه تلّون فى شعر صفى الدين الحلى بلون جديد يناسب طبيعة العصر والتخلص من التبعيات.

وأحّر رثاء له وأجزعه هو رثاء خاليه : صفى الدين بن محاسن الذى قتل غيلة فى مسجده وجلال الدين بن محاسن الذى قتل فى بعض وقائع أعدائه.

وقد وردت رواية لأحد الباحثين فى هذا الصدر يقول فيها:

"..... أما مثار الجزع فالقرابة والنسب، وصلة الدم،

---

(١) عصر الدول والإمارات / ٣٥٧ .

والكماة: الشجعان جمع كمى – درأ: دفع. المقانب: الذئاب الضارية ويريد بها هنا أعداءه. شم أنوفهم: أى أنوفهم الشم الأبة المزهوة – الترائب: جمع ترببة وهى عظم الصدر.

(٢) فى النقد الأدبي، د/ شوقى ضيف / ١٥ وما بعدها،

والخطب المشتركة، والحقد على العدو، وعدم البلوغ فى أخذ الثأر إلى أقصى غاياته...."[١].

ومن قوله فى رثاء خاله جلال الدين:

سفها إذَا شُقَّتْ عَلَيْكَ جُيُوبُ ... إن لَمْ تُشَقَّ مَرَائِرٌ وَقُلُوب[٢]

وَتَمَلُّقاً سَكْبُ الدُّمُوع عَلَى الثَّرَى ... إنْ لَمْ يمازجها الدَّمُ المَسكُوبُ

يا حمزةُ الثَّانى الذى كَادَتْ لَهُ ... صُمُّ الجبالِ الرَّاسياتِ تذوبُ

إنْ ضَاعَ ثَأْرُكَ بَيْنَ آلِ مَحَاسِنٍ ... تلك المحاسِنُ كُلهنَّ عُيُوب

لَمْ أَبْكِ بالحُزْنِ الطَّويل تَملُّقاً ... حزنَى عَلَيْكَ وقائعٌ وَحرُوبُ

فلأبكينَّكَ بالصَّوَارِمِ والْقَنَا ... حتى يُحَطَّمَ ذَابلُ وقضَيبُ[٣]

هذا، وبجانب المديح والرثاء نجد الوصف يشغل مساحة كبيرة من ديوانه الشعرى وربما كان الوصف أوسع أبواب شعره وفنونه، فوصف الطبيعة وما تحتوى عليه من أشجار، وأزهار، وأطيار، وأنهار، ووديان، وجسور، ومدن، ووصف الصيد، والخيل، والقوس، والسيف، كما تناول أيضا وصف الأعواد، وأدوات الغناء، والمغنين، والألحان، ومجالس الأنس، والراقصات، والشموع، وغير ذلك.....

---

(١) صفى الدين الحلى / ٩٤، وما بعدها.

(٢) والسفه: الحمق والطيش، والجيوب، جمع جيب، وهو طوق القميص، والمرائر: جمع مرارة وهى هنة شبه كيس لازم بالكيد تكون فيها مادة صفراء والمراد بها هنا النفوس، وفى قوله يا حمزة الثاني: يشبه الشاعر خاله بحمزة الشهيد عم الرسول عليه الصلاة والسلام، والجبال الصم: الصلبة القوية.

(٣) الصوارم: جمع صارم وهو السيف، والقنا: جمع قناة، وهى الرماح، والذابل الرمح اليابس، والقضيب: السيف القاطع كالقاضب، والسلاف: الخمر.

فمن قوله يصف إبريق الشراب:

وإبريق لَهُ نُطْقٌ عَجيبٌ ... إذا مَا أُرْسِلتْ منه السُّلافَ

كَفَأ فاءٍ تَلَجْلَجَ فى حديثٍ ... يردِّدُ لَفْظَهُ والفاءُ قَافُ[1]

ولصفى الدين قصائد مستقلة فى الغزل، وله أيضا مقطعات وأبيات وكثيرا ما قدم الغزل بين يدى المديح فى مفتتح القصائد على سنة القدماء من الشعراء، ولكن غزله لم يصدر عن عاطفة أصيلة، ولا عن حب صادق عميق، وإنما كان الدافع تمرين القريحة أحيانا، أو الرغبة فى التسلية، ولكنه كان مكبا على متع الحياة ولذّاتها وكان حريصا على أن يكون له من مباهجها نصيب.

وقد جمع صفى الدين بين الغزل النفسى والحسي، فكما وصف القرب، والبعد، والوصل، والصدّ، وصف العيون الساحرة، والجفون الفاترة، والباثرة، وغير ذلك.....

ولكن غزله النفسى أرقى وأكثر:

ومن غزله الذى يمتزج بنزعة نفسية:

لَوْلاَ الْهَوَى ما ذَابَ من حنينهِ ... صَبٌّ أصابَتْهُ عُيونُ عِينهِ[2]

مُتَيِّم لا تَهْتَدِى عُوَّادُه ... إلاّ بما تَسْمَعُ مِنْ أنِينهِ

والحلى شاعر يؤمن بأن للشعر مهمة سامية، كما أن له تأثيره العظيم فى النفوس، فالشعر ".... لمعة خيالية يتألق وميضها فى سماوة الفكر فتبعث أشعتها إلى صحيفة القلب، فيفيض بلألائها

---

(١) الفأ فاء: الذى يرود حرف الفاء كثير فى كلامه، تلجلج: اضطراب، وتردد فى كلامه.

(٢) والعين: جمع أعين وعيناء ويطلق على بعر الوحش لسواد عينه وسعته. والمتيم: الذى تيمته المرأة أى عبدته وذللته.

نوراً يتصل خيطه بأسلة اللسان يمتزج بألوان من الحكمة ينبلج بها الحالك ويهتدى بدليلها السالك - فمن أتاه الله منه حظا وكان كريم الشمائل طاهر النفس فقد ملك أعنه القلوب ونال مودة النفوس.

ولو لم يكن مَن حسنات الشعر الحكيم إلا تهذيب النفوس، وتدريب الأفهام وتنبيه الخواطر إلى مكارم الأخلاق، لكان قد بلغ الغاية التى ليس وراءها لذى رغبة مسرح وارتبأ الصهوة التى ليس دونها لذى همة مطمح..... "[1].

هذا، وقد يظن بعض الناس أن الإطالة فى الكلام لا داعى إليها ولذا رأيت أن هذا مجانبا للصواب لأن الشاعر أصل الشعر، والشعر فرع عنه، ولا يدرك الفرع إلا بالرجوع إلى الأصل، ومن أجل هذا سمحت للقلم أن يفيض بعض الشيء فى الحديث عن الشاعر حتى تتبين لنا معالم شخصيته فنفهم قصيدته.

ولنتأمل قصيدته التى أودعها عصارة فكره، ووجدانه، لنقف على مواطن الجمال والإبداع فيها:

لَا يَمْتَطِى الْمَجْدَ مَنْ لَمْ يَرْكَبِ ... ولا يَنَالُ العُلاَ مَنْ قَدَّمَ الحَذَرَا[2]

ومَنْ أَرَادَ العُلاَ عَفْواً بِلاَ تَعَبٍ ... قَضَى ولم يَقْضِ مِنْ إِدْرَاكِهَا وَطَرَا[3]

---

(١) البارودي، رائد الشعر الحديث، د/ شوقى ضيف / ٥٠ ط. الرابعة / دار المعارف.

(٢) والقصيدة لصفى الدين الحلى فى مديحه للملك الصالح شمس الدين.
امتطى المجد: اتخذه مطية، والمطا: الظهر ومنه قيل للبعير مطية، فعيلة بمعنى مفعولة لأنه يركب، والناقة مطية لأنه يركب مطاها أى ظهرها، والمطو: الجد والإسراع فى السير يقال مطا الرجل يمطو مطوا إذا جدّ فى سيره أو سار سيرا حسنا، والعلا: جمع العليا ومعناها: الشرف والفضل، والمعالى والمكارم، والمجد، والحذر: الخوف.
والمعنى: أن الإنسان لن يتمكن من الوصول إلى المجد والشرف إلا بالتعب والتعرض للأخطار والمتاعب.

(٣) عفوا: أعطيته المال عفوا: بغير مسألة، وقضى: مات، والوطر: الحاجة، أو الحاجة لك فيها هم وعناية. والمعنى: أن من طلب الرفعة من غير كد ولا تعب يظل محروما من الحصول على غايته حتى يموت دون تحقيقها فالتمنى وحده لا يحقق شيئا.

لاَبُـدَّ للشُّـهدِ مِـن نَحْـلٍ يُمَنِّعُـهُ ... لاَ يجْتَنى النَّفْعَ مِـنْ لَـم يَحْمِلِالضَّـرَرَا[1]

لا يُبلَـغُ السُّـؤْلُ إلاَّ بَعْـدَ مُؤْلِمَـةٍ ... وَلاَ تتُـم المُنَـى إلاَّ لِمَـنْ صَـبَرَا[2]

وَأحْزَمُ النَّاسِ مِن لَـوْ مـاتَ مِـن ظَمَـإٍ ... لا يقْرَبُ الـوِرْدَ حَتَّـى يعـرِفَ الصَّـدَرَا[3]

وأغْـزَرُ النَّـاسِ عَقْـلاً مَـنْ إذَا نَظَـرتْ ... عَينَـاهُ أمـرًا غَـدا بِـالْغيرِ مُعْتَـبِرا[4]

فَقَـدْ يُقَـالُ عِثَـارُ الرِّجْـلِ إن عَـثَرَتْ ... ولا يُقَـالُ عِثَـارُ الـرَّأى إنْ عَـثَرَا[5]

مَـنْ دَبَّـرَ العَيْـشَ بِـالآراءِ دَام لَـه ... صَفْـوًا، وجـاءَ إليـهِ الْخطـبُ مُعْتَـذِراً[6]

يَهُونُ بِـالرَّأى مـا يَجْـرِى القَضَـاءُ بِـهِ ... مَـنْ أخْطَـأَ الـرَّأى لا يَسْـتَذنِبِ القَـدَرَا[7]

---

(١) منعه الشيء: حال بينه وبينه، والتشديد للمبالغة، والشهد بالفتح والضم: عسل النحل، واجتنى الشيء وجناه: حصل عليه.

والمعنى: يقول الشاعر: إن المعالى لا تنال إلا بالجد والتعب وتحمل الأخطار كما أن عسل النحل لا يناله الإنسان إلا مع التعرض للسعة وأذاه واحتمال ألمه.

(٢) سؤلك: مسئولك ومطلوبك، والمؤلمة: الموجعة من آلمه بمعنى أوجعه.

والمراد بذلك: أن الإنسان لا ينال ما يتمناه إلا بعد تعب وصبر.

(٣) المفردات: الورد (بالكسر) الماء الذى ترده للشرب، والورد الإشراف على الماء وغيره، والصدر بالتحريك: رجوع الشاربة عن الورد والمسافر عن قصده. والمعنى: أن الحازم هو الذى يحتاط للأمر ويحسب حساب عاقبته ولا يقدم عليه حتى يثق بالسلامة منه ويظمئن لعاقبته.

(٤) أغزر: أكثر، الاعتبار: الاتعاظ والتذكر.

والمعنى: أن أعقل الناس من يتعظ بما يصيب غيره.

(٥) عثر: عثرا وعثارا بالكسر: كبا وسقط، والعثرة: المرة وتطلق على الزلة، وعثر على الشيء من باب قتل عثرا وعثورا: اطلع عليه ووجده.

والمعنى: أن عثرات الرجل فقال أى تعالج ويشفى منها المصاب، أما عثرات الرأى فلا راد لما جرته من ويلات ونكبات ولا حيلة فى علاجها بعد وقوعها ويقال أى يرفع ويعالج.

(٦) دبر العيش بالآراء: تفهم أموره وسار فيها على ما تقتضى الحكمة والعقل، وصفوا: صافيا غير مكدرا، والخطب: المصيبة، معتذرا: طالبا العذر.

والمعنى: أن من سار فى حياته على مقتضى العقل وحسب لكل شيء حسابه واحتاط وابتعد عن المزلات كان حقيقيا بأن يصفو له العيش وألا تصيبه المنغصات والأكدار فإن أصابه شيء منها بعد أخذه نفسه بالآراء السليمة يكون معذورا فلا يوجه إليه لوم.

(٧) يهون: يسهل، يستذنب: يحمل الذنب، ويعده مذنبا.

والمعنى أن أخذه أموره بالحكمة والعقل ولم يقصر فى أداء واجبه تهون مصيبته وتكون أخف.

مَـنْ فاتَـهُ العِـزُّ بـالأقْلامِ أدْركـهُ ... بالبيضِ يَقْـدَحُ مـن أعْطافِهـا الشَـرَرَا[1]

لا يَحْسُـنُ الحلْـم إلّـا فـي مواطِنِـهِ ... ولَـا يلـيقُ الوَفـا إلاَّ لِمـن شَـكَرَا[2]

وَلا ينـالُ العُـلا إلاَّ فتًـى شَـرُفَتْ ... خِـلالُه فأطَـاعَ الدَّهـرُ مـا أمَـرَا[3]

كالصَّـالحِ الملـكِ المَرْهُـوبِ سَـطْوتُه ... فَلْـو تَوعَّـدَ قَلْـبَ الدَّهـر لا نْفطَـرَا[4]

لمّـا رَأى الشَّـر قـد أبـدَى نَوَاجِـذَهُ ... والغدْرَ عنْ نابـهِ لِلْحـرب قـد كَشَـرَا[5]

رأى القِسـي إناثًـا فـي حَقِيقَتِهـا ... فعافهـا واستشـارَ الصـارمَ الذَّكَـرَا[6]

يَكـادُ يُقـرَأُ مـنْ عُنـوان هِمَّتِـهِ ... مـا فـي صحائف ظهرِ الغيْبِ قد سُطِرَا[7]

---

(١) العز: الشرف والمجد، أدركه: حصل عليه، البيض: السيوف جمع أبيض، يقدح الشرر: يضرب بها ضربا قويا يتطاير منه الشرر، وأعطافها: حدها.

والمعنى: من لم يحصل الشرف والعز من كتابته وشعره، فليعول على السيف فإنه كفيل بأن يجعله فى عز وشرف.

(٢) الحلم: عدم الغضب وكظم الغيظ، موطنه: مواضعه التى يليق بها، وفى البيت يبين الشاعر أن الحلم وإن كان سيد الأخلاق ومطلوبا من كل إنسان قد يقبح فى بعض المواطن كالحرب والتعرض للإهانات والاعتداء على العرض، والكرامة، كما يقبح مع بعض الناس كالسفلة الذى يرون الحلم جبنا ويعدونه خوفا، وأن الإكرام يجب أن يكون لمن يشكر ويقابل الإحسان بمثله.

(٣) شرفت: عظمت، خلاله: جمع خلة بالفتح وهى الخصلة والصفة.

المعنى: وفى البيت يبين أن الخلال الشريفة تنزل الدهر على حكم صاحبها فيحقق آماله ورغباته ولا يعصى له أمرا.

(٤) المرهوب: المخوف، انفطر: انشق، والفطر: الشق.

المعنى: يريد أن يصفه بالشجاعة.

(٥) أيدى: أظهر، النواجذ: الأضراس، وهى أربعة، أو هى الأنياب، أو الأضراس التى تلى الأنياب، جمع ناجذ، والنجذ: شدة العض بها وكشر: عبس.

(٦) القسي: جمع قوس، التى تقذف السهام، عافها: كرهها وزهد فيها، الصارم: السيف القاطع القوي، والذكر: أبيس الحديد وأصلبه، واستشاره فى الأمر عرضه عليه، ليأخذ رأيه فيه،

المعنى: يريد أن يقول: أنه رجل حرب يستعد لمقابلة أعدائه بأقوى الأسلحة غير هيّاب ولا وجل.

(٧) عنوان الشيء: بضم العين، وقد تكسر: ما يستدل به عليه، والهمة بالكسر: العزم القوي، أى أنه ألمعى وظنه يكون فى موضعه وذلك لفصاحة رأيه وبعد نظره.

كالبحر والدهر في يومي ندى وردىً ... والليثِ والغيثِ في يومي وغي وقرى[١]

ما جاد الناس إلا قبل ما سألوا ... ولا عفا قط إلا بعد ما قدروا[٢]

لاموه في بذله الأموال قلت لهمْ ... هل تقدر السحب ألا ترسل المطرا[٣]

من آل أرتق المشهور ذكرهم ... إذ كان كالمسك إن أخفيته ظهرا[٤]

الحاملين من الخطى أطوله ... والناقلين من الأسياف ما قصرا[٥]

لَمْ يرحلوا عن حمى أرضٍ إذَا نزلوا ... إلاّ وأبقوا بها من جودهم أثراً[٦]

تبقى صنائعهم في الأرض بعدهم ... والغيثِ إنْ سار أبقى بعده الزهرَا[٧]

---

(١) الندى: البلل وما سقط في آخر الليل من ماء، ويطلق مجازا على الكرم والردى: الهلاك مصدر ردى، كرضي: يروى ردى بمعنى هلك، والقرى: إكرام الضيف مصدر قرى الضيف يقر به قرى بالكسر، وقد كرر معنى الحرب والكرم يذكرهما في الشطرين ليبين أنه شجاع كريم.

(٢) جاد من الجود وهو الكرم والعطاء، وأنه يعفو عن المسيء وعفوه عن مقدرة.

(٣) لاموه: وجهوا إليه اللوم، بذله: البذل: العطاء، يعنى أن كرمه طبع وسجية فيه لا يمكن التخلى عنه.

(٤) أرتق (بضم الهمزة والقاء): هم ملوك ماردين وديار بكر الذين منهم الممدوح ويبين الشاعر أنه من الملوك المشهورين المعروفين بالكرم والشجاعة.

(٥) الخطى بالفتح: الرمح نسبة إلى الخطر بالفتح وهو شاطئ البحرين وعمان، وقيل مرفأ السفن بالبحرين تنسب إليه الرماح فتقال رمح خطي، ورماح خطية بفتح الخاء، وإنما نسبت إليها لأنها يجلب إليها من الهند فيقوم بها فليس هو من نبات أرض العرب بل يجلب من الهند.

والأبيات تحمل بين طياتها وصفا مفصلا لآل أرتق بالشجاعة والمهارة في الحروب وأنهم يحملون الرماح الطويلة والسيوف القصيرة.

(٦) خمى: الحمى: ما يجب حمايته، جودهم: كرمهم وآثارهم، يريد أنهم ذوى أعمال طيبة تبقى شاهدة على كرمهم.

(٧) الصنائع: جمع صنيعة وهى الإحسان، والغيث: المطر، أى تبقى آثارهم بعدهم مخلدة في الكتب والآثار.

دراسة وتحليل للنص

هذه القصيدة الرائية لشاعرنا صفى الدين الحلى فى مديح الملك الصالح شمس الدين بن المنصور، وهى تفصح عن العلاقة الحميمة التى تربط بين الشاعر وممدوحه، وكان التتار قد اختلفوا فيما بينهم واضطربت أحوالهم، وكثر النزاع بين زعمائهم بالعراق فأخذ صفى الدين الحلى يثير روح الحماس فى نفس الملك الصالح للتحرز منهم والترقب لهم، وعلى لقاءهم عندما تتهيأ له الفرصة، والإفادة مما دبّ بينهم من خلافات، فقدّم الشاعر إلى الممدوح هذه القصيدة الطلية وهنأه بعيد النحر(١).

وقد استهلها بمجموعة من الحكم الصادقة التى تدلنا على خبرته وتمرسه بمدرسة الحياة، يسوقها لمن يتمثلها وينتهجها، وقد استهلها ببيان أن المجد لا يأتى عفوا ولا ينال بالتمنى، وإنما لا بد من بذل الجهد والتعب.

وأول ما يطالعنا فى القصيدة الحركة المتوثبة الدائمة فى اختيار الألفاظ الموحية(٢)، والمناسبة للموقف الشعورى الذى يخالج إحساس الشاعر وقت نظمه القصيدة، ومثل ذلك: يمتطي، يركب، ينال، والتى تشعرنا بأن المجد لا يأتى عفو الخاطر، بل لابد من المثابرة والعمل الدؤوب للوصول إلى الهدف المنشود وذلك يفهم من قوله:

---

(١) البدر الطالع / ٢٥ وما بعدها.

(٢) والإيحاء: إثارة الكلمة فى النفس معانى كثيرة أحاطت بها، حتى صار النطق بالكلمة مثيرا لهذه المعانى فى نفس سامعها، ينظر أسس النقد الأولى عند العرب/ ٤٥٤.

لَـا يَمْتَطِى الْمَجْدَ مِـنْ لَـمْ يَرْكَـب ... ولا يَنَـالُ العُـلاَ مَنْ قَدَّمَ الحذَرَا[1]

وبجانب ذلك اختياره للكلمات من مثل : الخطرا، الحذرا، وهما يوحيان بالخوف والرهبة، وفيها إشعار بأن الإنسان إذا واجه الصعاب والشدائد فى سبيل تحقيق، فسوف يصل إلى ما يريد.

والحق أن القصيدة جاءت متعددة الجوانب، وعلى الرغم من أنها تحوى أفكارا بعضها طرق، وبخاصة بين شعراء هذه الفترة. فإن صياغة الشاعر لهذه القصيدة جعلها تلبس ثياب الجدة والطراقة ففى البداية يطالعنا بحقيقة ملموسة وهى أن المجد لا يأتى لقاعد متخاذل، وإنما ينبغى لمن يبحث عن المجد أن يجتهد ويكدّ ويبذل قصارى جهده، وإن أدى به ذلك إلى التعرض للأخطار وفى البيت الأول يرسم الشاعر صورة حية للمجد ماثلة للعيان شاخصة، وذلك بأن صورة الباحث عن المجد بمن يركب الإبل للوصول إلى المكان الذى يبتغيه،

ثم يجيء البيت التالى بتعبير أوضح للفكرة الأولى فيبين أن من طلب العلا بدون كدّ أو تعب سيظل محروما من الوصول إلى غايته، وقد يدركه الموت قبل تحقيق أمانيه، خلافا لمن يصل إلى العلا بجهده، فسوف يأتى اليوم الذى يجنى فيه الثمار الحقيقية لنجاحه ولوصوله إلى غايته المرجّوة،

---

(١) والقصيدة لصفى الدين الحلى فى مديحه للملك الصالح شمس الدين.

امتطى المجد: اتخذه مطية، والمطا: الظهر ومنه قبل للبعير مطية، فعيلة بمعنى مفعولة لأنه يركب، والناقة مطية لأنه يركب مطاها أى ظهرها، والمطو: الجد والإسراع فى السير يقال مطا الرجل يمطو مطوا إذا جدّ فى سيره أو سار سيرا حسنا، والعلا: جمع العليا ومعناها: الشرف والفضل، والمعالى والمكارم، والمجد، والحذر: الخوف.

والمعنى: أن الإنسان لن يتمكن من الوصول إلى المجد والشرف إلا بالتعب والتعرض للأخطار والمتاعب.

وأن الإنسان إذا لم يعود نفسه على الصبر والتحمل قد يصاب بالفشل، وبالتالى لا يستطيع اللحاق بركب التقدم ومن الملاحظ أن الشاعر استعان على إبراز فكرته بطريق الاستعارة بالكناية ليفيد بأن المجد من الممكن أن يكون قريب من الإنسان كالتمكن من ظهر المطية.

وفى قوله: "ولا ينال العلا من قدم الحذرا"، تعبير جميل وحكمه ظاهرة جاء بها الشاعر ليبين أن الخوف من العواقب إذا نسلط على الإنسان وتمكن من نفسه جعله مترددا محجما فلا يتحرك نحو عمل نافع ولا غاية سامية، وهذه الحكمة تبدو ظاهرة فى الأمور كلها وبخاصة فى المعاملات التجارية والسياسية، فالتاجر الجبان لا يربح، ولا يخسر، والسياسى المتردد الجبان لا تتقدم بلاده.

ويشغفنا بصورة حيّة من خلال مواصلة الحديث عن السعى لاكتساب المجد فيبين أن العسل الأبيض، وهو غذاء شهى محبوب لكل الناس، وفيه شفاء لكثير من الأمراض، لا يمكن استخراجه من الأماكن التى ويجد فيها غلا بعد التعرض للسع النحل.

وهذه الصورة يشعر بها أكثر من يعمل فى مجال تربية النحل. ولقد تجلت قدرة الشاعر فى تطويع الألفاظ والملائمة بينها وبين الفكرة التى عبر عنها بطرق مختلفة، فعبر بالشهد[1] دون العسل ليترك للذة الحسية مجالا للمتعة، والإحساس بجمال المشهد، فالنحل يصول ويجول فى الحقول، ويمتص رحيق الأزهار والثمار اليانعة صيفا وشتاءا ويغرز العس الذى هو شفاء للناس.

---

(١) وكلمة الشهد هنا مصورة بجرس حروفها للمعنى الذى أراده الشاعر، ينظر أسس النقد الأدبى / ٤٥٨.

فالعسل طعام شهي، ولكن لا يستطيع الإنسان الحصول عليه إلا بعد أن يتعرض للدغ النحل، وبالتالى يجد مشقة فى استخراجه وعصره، وتصفيته إلى أن يصل إلى المرحلة النهائية.

لقد استطاع الشاعر أن ينقل إليها أفكاره النيّرة برسم صورة جميلة محببة للنفس، وهى الصورة الطيبة للعسل أثناء جمعه من بطون الخلايا، وفى المقابل لذلك تبدو ماثلة للعيان صورة النحل الذى ينتقل من خلية لأخرى وقت الغرز.

هذا، وفى الصورة السابقة متعة للبصر والبصيرة، تمتد خيوطها وتتنوع من آن لآخر لتبرز لنا اللون الذهبى وهو يتدفق من أقراص الشمع فى الطريق لتصفيته وتنقيته وجمعه.

ويمكن القول بأن الألفاظ التى توسل بها الشاعر لنقل الفكرة التى أرادها منه مثل: للشهد، يُمنّعه، يجتني، النفع، الضرر. تعاونت معا فى رسم لوحة بارزة المعالم من الخطوط والألوان والحركة، فالحركة: وهى واضحة فى خروج النحل من خلاياه وقت الفرز، واللون فى أقراص الشمع مصدر الشهد وهى تبدو للرائى من بعيد فى ثياب ذهبية لامعة، والصوت الصادر من تنقّل النحل وطيرانه، والضجيج الذى يحدث منه وقت الجني.

وها هو ذا ينتقل إلى لوحة أخرى، يواصل فيها الحديث عن الأمور التى يجب توافرها لمن يتطلع إلى المجد بقوله ...

ومَنْ أرَادَ العُلاَ عَفْواً بِلاَ تَعَبٍ ... قَضى ولم يَقْضِ مِنْ إدْرَاكِها وَطَرَا[1]

---

(١) عفوا: أعطيته المال عفوا: بغير مسألة، وقضى: مات، والوطر: الحاجة، أو الحاجة لك فيها هم وعناية.

والمعنى: أن من طلب الرفعة من غير كد ولا تعب يظل محروما من الحصول على غايته حتى يموت دون تحقيقها فالتمنى وحده لا يحقق شيئا.

لا يُبلَغُ السُّؤلُ إلاَّ بَعْدَ مُؤلمِةٍ وَلاَ تتُّم المُنَى إلاَّ لِمَنْ صَبَرا

وفى البيت تنويع فى الأداء، وجمال الاتساق بصياغة يستثير فيها الخيال ويستنهض الهمم والعزائم لتحقيق الأمانى والظفر بها[1].

فيؤكد حديثه قائلا بأن الإنسان الطموح الذى يريد الوصول إلى هدفه عليه أن يتحمل الآلام والأوجاع وأن يتحلى بالجلَدَ والصبر حتى يتمكن من الوصول إلى غايته، ويجد فى ذلك متعة إنه يؤكد حديثه بلا النافي، وبأداة الاستثناء إلاّ. ليبين أن الإنسان الذى يتطلع إلى المجد لابد وأن يبحث عن الأسباب التى تؤهله للوصول إلى غايته، وإذا وصل إلى الغاية المنشودة تحققت له أسباب السعادة ليبرز فى مصاف الشرفاء بإباء وعزة.

وليبتعد عن الطرق الملتوية التى توصل إلى الغاية بأقرب وسيلة وفى قوله: "ولا تتم المنى" يدل على أن من لم يصبر يدرك أمانيه ناقصة غير تامة، ولو أنه أتى بما يفيد حرمان غير الصابر من كل أمانيه كان أدق وأصوب لا سيمّا وأنه فى مقام الحث على الجد والعمل واحتمال المشقات والألم فى طلب الرفعة وبلوغ الآمال الرفيعة يقول: "ولا تهون المنى".

ويتابع الشاعر حديثه فى ارتياد الطريق الأمثل للوصول إلى الفضيلة بقوله:

وَأحْزَمُ النَّاسِ من لَوْ ماتَ من ظَمأٍ لا يقْرَبُ الوِرْدَ حَتَّى يعرِفَ الصَّدَرا

ليرسم صورة جميلة للرجل الذى يحسن التصرف فى الأمور بصورة حيوان ظمآن يبغى الوصول إلى مواطن الماء، ولكنه لا

---

(١) النقد الأدبى الحديث / ٢٧٠ وما بعدها.

يقربها حتى يتأكد له أن سيبتعد عن المهالك التى قد تنجم عن التزاحم فى هذه الأماكن.

وهى فى جملتها صورة ممتدة الألوان، وارفة الظلال خطوطها تتجلى فى الصوت الممتد فى التجوال والبحث عن موطن آمن للمياه، والحركة الناتجة عن الذهاب والإياب للبحث عن مكان مناسب للشرب منه هذا كله بجانب الصور الجزئية التى تمتد أطرافها من الاستعارة الممثلة

فى قوله:

لا يقْرَبُ الوِرْدَ حَتَّى يعرِفَ الصَّدَرا

وما فيها من تعبير واضح جاء من تشبيه الإنسان بالحيوان الظمآن الذى يحاول الوصول إلى المياه بشكل لائق.

فالحيوان شديد الظمأ ولكنه يحاول الوصول إلى أماكن الشراب بدون تزاحم هذا بجانب الطباق بين كلمتى الورَد، الصدَرا، لتقوية الفكرة.

والطباق من الألوان البديعية المعروفة بجمالها فى تقوية عنصر الإثارة والإيقاع المتمثل فى الجرس الصوتى للبيت(١).

وبجانب ذلك الكناية التى تفصح عن التعقّل والتريث والتمّهل والنظر إلى الأمور بتؤدة ورويّة بأسلوب مثير.

ومن الكلمات التى استعان بها الشاعر أيضا إتيانه بأفعل التفضيل "أحزم" التى يرى بعض الباحثين بأنها من أدوات التشبيه.

---

(١) الوان البديع فى ضوء الطبائع الفنية والخصائص الوظيفية ت / محمد على الشافعى / ١٤٦ وما بعدها.

جاء فى " عروس الأفراح " للسبكى قوله: " وأشار الطيبى إلى أن من أدوات التشبيه: - أفعل التفضيل مثل: "زيد أفضل من عمرو".

وعقّب بهاء الدين السبكى بقوله: " وفيه بُعد..... "[١].

وفى رأينا أن كلام ابن السبكى جدير بالاهتمام، وذلك لأن أفعل التفضيل ليست من الأدوات المعهودة فى التشبيه خلافاً لغيرها من الأدوات.

وفى قوله :

لا يقرب الورد حتى يعرف الصدرا

تمثيل وتصوير الحال الإنسان الذى يحتاج للأمور ويحسب حسابها، ويُقدّر العواقب بحال الشخص الذى لا يقرب الماء قبل أن يعرف كيفية الخروج منه والرجوع عنه دون غرق أو أذى بطريق الاستعارة التمثيلية التى تضفى على الألفاظ عنصر الإيحاء[٢].

إنه يُواصل حديثه عن الفكرة التى تناولها فى القصيدة، للسعى إلى معالجة الأمور بتؤدة وروّية، فيرسم صورة شاخصة ناطقة بلسان حاله قائلة: "ينبغى على الإنسان العاقل ألا يقدم على أمر ما قبل أن يتحرى الدقة فى ماهية هذا الأمر، وفيما سيصل إليه فى النهاية، وذلك تماما مثل الظمآن الذى لا يقترب من الماء حتى يتأكد تماما من مصدر المياه.

لقد استطاع الشاعر بما أوتى من أدوات أن يجعل من الصور السابقة وظيفة هادفة، وبدا هذا جليا واضحا فى عرض الحقائق من خلال المشاعر والانفعالات، ليمنحها الحرارة والقوة، ولتبدو

---

(١) أثر التشبيه فى تصوير المعنى، د/ عبد البارى طه سعيد / ١٦٢.

(٢) المصدر السابق / ١٦٢ وما بعدها.

فـي صـورة أجمـل مـن حقيقتهـا وواقعهـا فالوجدانـات والمشـاعر لا تـرى الأمـور بـالعين المجردة حتـى تراهـا، كمـا هـي، وإنمـا تراهـا بعيـن الخيـال المحلّـق، وهـي عيـن سـحرية بعيـدة الرؤيـا تـرى الحقيقـة الواحدة فـي ألـوان شتّى، وأبعاد كثيرة وأحجام مختلفـة"[1].

ويتـابع الشـاعر استكمال الصـورة السـابقة بتفصيـل الحديـث عـن ضرورة تحكم الفعل قبل الشروع فـي أي عمل قـائلا: -

وأَعْزَزُ النَّاسِ عَقْلاً مَنْ إِذَا نَظَرت ... عَيناهُ أمرًا غَدا بـالْغيرِ مُعْتَـبرا

فَقَدْ يُقالُ عِثارُ الرِّجْلِ إن عَـثَرَتْ ... ولا يُقالُ عِثارُ الـرَّأي إنْ عَـثَرَا

وهـو هنـا يعـرض لأمريـن هـامين وهمـا عـثرة الرجـل وعـثرة العقل، وعنـى بقولـه عثرة الرجل: أي مـا يقـع بهـا مـن كسـر أو مـرض أو غير ذلك مما يمكن علاجه.

أمـا عثرة الـرأي ومـا يترتب عليها مـن خيبـة الأمل، وغـير ذلـك مـن نكبـات فـلا عـلاج لهـا. وقـد أحسـن الشـاعر التوفيـق فـي عـرض الأفكـار بصـور ملموسـة مشـاهدة فعـثرة الـرأي مـن الأمـور المعنويـة، تخير لهـا عـثرة الرجـل وهـي مرئيـة قريبـة وقـد تحـدث لأي إنسـان، فـأراده بهـا الشـاعر إثـارة انتبـاه المتلقـي مـن خـلال عرضـه لصـورة الرجل وهـي تتعثر، ومثل ذلك عثرة الرأي عندمـا تقـف الأمـور أمـام صاحبهـا حجـر عـثرة وهـي صـورة مخيفـة توحـي بالضيـاع والفشـل لمـن تحدثـه نفسـه الإقدام علـى أي عمـل قبل الإعداد لـه إعداد جيدا.

وهـا هـو ذا يعـود فيؤكـد بأسـلوب بيـانـي خيـالـي قـائلا:

مَـنْ دَبَّـرَ العَيْـشَ بـالآراءِ دَامَ لـه ... صَغْوًا، وجاءَ إليهِ الْخطبُ مُعتَذِراً[2]

---

(١) الصورة الأدبية فى القرآن الكريم، د/ صلاح عبد التواب ص / ٢٥.

(٢) دبر العيش بالآراء: تفهم أموره وسار فيها على ما تقتضى الحكمة والعقل، ==

وكأنى به يبين أن الحياة الكريمة هى وليدة الرأى المستنير، وفى كلمات موجزة موحية رسم الشاعر صورة مثلى للحياة السعيدة وعبر عنها بالعيش وذلك لأن الإنسان دائما يتطلع للسعادة الحقيقية التى تكمن فى إعمال العقل، وفى التعبير بصيغة الماضى بين الكلمات: دَبَّر، دامَ، جَاء.

إفادة للدوام والاستمرار؛ فالتريث والتعقل فى النظر للأمور يتحقق بهما سعادة الإنسان فالبيت بجملته يرسم صورة لإحساس الشاعر بالحياة الحقيقية التى لا يشوبها كدر هذا بجانب الصورة الجزئية التى نسج من ظلالها فكرته لينتقل إلينا عبر القصيدة الفيحاء تجاربه فى الحياه، وليبين أنه ابن التجربة وأنه حفر مجده بقلمه.

فالشاعر فى الأبيات السابقة عرض لنا أفكارا حافلة بالصور البيانية وهى جديرة بالاهتمام، فهو يصف العقل بالغزارة كناية عن الاعتدال فى التصرف والاحتياط.

والكناية تعطينا المعنى مصحوبا بالدليل، وفى ذلك إثارة للمتلقى ومتعة للحس والوجدان، وكلها تدلنا على قدرة الشاعر على إلباس المعقول ثوبا المحسوس المشاهد[1]، ويؤكد لنا ذلك ما جاء فى البيت التالي:

فَقَدْ يُقَالُ عِثَارُ الرِّجْلِ إِن عَثَرَتْ ولا يُقَالُ عِثَارُ الرَّأى إِنْ عَثَرَا

==وصفوا: صافيا غير مكدرا، والخطب: المصيبة، معتذرا: طالبا العذر.

والمعنى: أن من سار فى حياته على مقتضى العقل وحسب لكل شيء حسابه واحتاط وابتعد عن المزلات كان حقيقيا بأن يصفو له العيش وألا تصيبه المنغصات والأكدار فإن أصابه شيء منها بعد أخذه نفسه بالآراء السليمة يكون معذورا فلا يوجه إليه لوم.

[1] العمدة فى محاسن الشعر / ٣١٢ وما بعدها.

فالبيت يشير إلى ضرورة الاعتبار والتفكير جيدا قبل الإقدام على أى عمل جاد، فقد يخطأ الإنسان فى أمور بسيطة لكنه يستطيع أن يستدرك هذا الخطأ قبل استفحاله، خلافا لمن أخطأ فى حساب أشياء كبيرة وحينئذ يكون الرجوع فيه بعد فوات الأوان، وبالتالى لا يجدى معه الإصلاح.

وهذا، ومن الملاحظ أن الشاعر فى البيت استعان فى عرض أفكاره بأشكال متنوعة منها "قد" التى هى للتحقيق، "التكرار".

وفى كلمتى يقال، يقال، والتعبير بصيغة المضارع لإفادة التجدد والحدوث والتكرار أيضا فى الكلمات عثار، عثار، عثرا.

للدلالة على أهمية الفكرة التى يتحدث عنها الشاعر، وللتنبيه على خطورة الإقبال على أى عمل قبل التفكير فى عواقبه جيدا.

وللاستعارة المكنية جمالها فى تقوية المعنى بالإيحاء، وبالخيال الذى يثرى الأفكار.

فالشاعر هنا استعان بالاستعارة لتشبيه العيش بالماء الصافى وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو "الصفاء".

وهو تشبيه يوضح أثر الرأى السديد فى استقرار حياة الإنسان وسعادته وفيه ضرب من المباغتة التى تفاجأ القارئ وتثرى مشاعره وها هو ذا يطرح أفكاره بطرق مؤثرة فيقول:

مَنْ دَبَّرَ العَيْشَ بالآراءِ دَام لـه ... ضَغْوًا، وجاءَ إليهِ الْخطبُ مُعتَذِراً

ليبين أن العاقل هو من عايش الأمور معايشة حقيقية وفطن لمجرياتها، فهو آمن من الأذى، وسوف يمضى فى طريقة قدما بعيدا عن المنغصات التى قد يتعرض لها الشخص العادى فى حياته

ومن الملاحظ أن الألفاظ التى انتقاها للشاعر من مثل: دُبَّر، العيَش، بالآراء، دامَ، صفوا.

وكذلك الشطر الآخر من البيت:

وجاءَ إليهِ الْخطبُ مُعتَذِراً

جاءت فى ثوب قشيب من خلال الصياغة التى أتاح الشاعر بها للرجل العاقل المجال لارتياد السُبُل التى تؤدى به إلى حياة سعيدة والألفاظ فى جملتها تدلنا على أنها صادرة من وجدان الشاعر الذى خبر تجارب الحياة، وفيها الدليل الواضح على اتساع هذه المساحة من ثقافته.

وتغذية شاعريته منها، وهى فى الوقت نفسه مستمدة من الطبيعة التى عاش فيها وتدلنا على إعجاب الشاعر بنفسه واعتداد ظاهر بما لديه من موهبة للشعر، وقد زيّل البيت بعبارة جميلة من خلال قوله :

"وجاءَ إليهِ الْخطبُ مُعتَذِراً".

ففى التعبير استعارة بالكناية حيث صوّر الشاعر الخطب بإنسان أخطأ واستدرك خطأه فذهب إلى صاحبه يعتذر له عما بدر منها حبا وتقديرا لشخصه، وهو يرقى بالخيال فيجَسم لنا الصورة ماثلة بين أعيننا بخطوطها الجزئية المتمثلة فى الاستعارة التى تجمل الصورة بعنصر الإيحاء، وما فيها من جمال وتشويق للنفس، والصورة الأخرى ذات اللون والصوت والحركة.

فالحركة ممثلة فى سير الخطوب إلى هذا الرجل الذى عرف بغزارة عقله، واللون القائم الحزين الذى يتراءى من ثِقَل هذه الأوزار والصوت المكبوت فى صدر هذا الخطب الذى جاء ليبدى

اعتذاره وليملى رغبته الأكيدة فى شوقه إلى التغير والصفح عما بدر منه.

إنها لوحة كاملة، جميع خيوطها نسجت من عمل الخيال، وللخيال دوره الخلاّق فى بناء الصورة:

"فهو تلك القوة النفسية التى يستطيع بها الأديب أن يعرض أدبه فى صور قوية مؤثرة ..."(١).

وهى فى الوقت نفسه لوحة مثيرة تلدلنا على أنها صادرة من نسج شاعر فنان، فالخطب وهو من الأمور العقلية، جعله الشاعر قريبا أمام العين، وما على العين إلا أن نتأمل هذه الصورة المطروحة أمامها، وقد شخّص الخطب فأحاله إلىإنسان يبذل كل ما فى وسعه ليستدّر عطف صاحبه، ويجعلنا نحن نتمثل الخطب إنسانا يقف حائرا، ويعى جيدا ما صدر عنه ثم يفد إلى الرجل ويحمل إليه اسمى آيات الاعتذار دون إبطاء ولا إرجاء.

ويؤكد حديثه الذى بدأه بقوله فى البيت التالي:

يَهُونُ بالرَّأى ما يَجْرِى القضَاءُ بِهِ مَنْ أخْطَأَ الرَّأى لا يَسْتَذنِبِ القَدَرَا

(٢)

ليبين أن من ارتكب خطأ فعليه أن يتحمل تبعات خطأه ولا ينحو باللائمة على القدر، وينبغى عليه أن يراجع نفسه وأن يتقبل تبعات خطأه ويواصل الشاعر حديثه عن رحلة الإنسان فى الحياة وما يستتبعها من تحقيق للآمال والطموحات العالية.

مَنْ فاتَهُ العِزُّ بالأقْلامِ أدْرَكَهُ بالبيضِ يَقْدَحُ من أغْطافِها الشَرَرَا

---

(١) الخيال الشعرى فى شعر الوصف عند البحترى د. طه مصطفى أبو كريشة / ٢١٧ وما بعدها.

(٢) يهون: يسهل، يستذنب: يحمل الذنب، ويعده مذنبا.

والمعنى أن أخذه أموره بالحكمة والعقل ولم يقصر فى أداء واجبه تهون مصيبته وتكون أخف.

أى من لم يستطع تحقيق ما يصبوا إليه من شرف وعزه عن طريق الكتابة والأدب فعليه أن يسلك طريقا آخر فليجنح إلى السيف فهو كفيل بأن يحقق له أمانيه.

فالفكرة قد تكون مطروحة قبل ذلك، ولكن براعة الشاعر تجلّت فى اختيار الألفاظ الموجية المثيرة للفكر،

فقوله:

مَنْ فاتَهُ العِزُّ بالأقلامِ أدركهُ

يشير إلى أن من ضاعت منه الفرصة للوصول إلى المجد بالكتابة وقرص الشعر فعليه أن يسلك الطريق الآخر لتحقيق الهدف، وهذا الطريق هو السيف وفى التعبير بـ "الأقلام" يوحى بأن للقلم أهمية عظمى فى حياة الإنسان وما يحمله بين طيّاته من جميع فنون القول نثرا كان أم شعرا وتعبيره بكلمة " أدركه " التى جاءت بلفظ الماضى والتى توحى بأن الفرصة مازالت سانحة لكل من يسعى لاكتساب المجد بجدٍّ واجتهاد وما زال الطريق أمامه ممهدا وعليه أن يجتهد ويواصل طريقه أنه فى الحقيقة يتحدث عن أهمية العلم فى بناء المعالي، ورقى الأمم وكأنّه أراد أن يقول فى لوحة جميلة أن الطريق الأمثل للوصول إلى المعالى "بالأقلام" وهى كناية جاء بها الشاعر لبحث الناس على ارتياد سبيل المعرفة الجادة الهادئة.

هذا، ومن فاته العز ولم يكون أديبا ولا شاعرا يمكنه إدراك ما فاته عن طريق السيوف والرماح بالشجاعة والفروسية والإقدام.

وفى قوله:

بالبيضِ يَقْدَحُ من أغطافِها الشررَا

استعارة بالكناية، جاء بها الشاعر ليبين أهمية الشجاعة في الوصول إلى المجد، وفي التعبير بـ "يقدح" إيحاء بقوة السيف وإشعار بأنه قاطع وفتاك، والشرر يتطاير منها هنا وهناك.

وفي كلمتي:

بالبيضِ يَقْدَحُ من أغطافِها الشرَرَا

إيحاء بجدة السيف الشديدة التي جعلته كأنه شعلة نار يتقد اتقادا، ويلتهب التهابا، فيقضي على ما يطيح به قضاءا مبرما إنها تموجات الضوء التي لا تحدث إلا إذا كان السيف جيد الصنيعة حين سقى بمائه وطلائه الأصيل الذى يعطيه هذا البريق الأخّاذ وكأن للسيوف خصائص تفردت بها وجعلتها جديرة بأن تكون موضع الأمل ومحط الرجاء، فغذا ضرب السيف ضربته فإنها ضربة ماضيه قاطعة مهما كان المضروب به،

ولهذا تجد أنفسنا أمام لوحة فنية كلية كأنها رسمت بريشة رسام مفتن، عمادها اللون المنبعث من تشابك كسيوف، وما يبدو على صفحتيه من شعاع ألوان الطيف المتداخلة.

والصوت الصادر من وقع السيوف.

والحركة في الذهاب والإياب والكرّ والفر.

إنه يجسّد لنا تجربته القاسية عبر أجواء القصيدة من خلال الأبيات التي تتآزر بعضا ببعض لتبرز جمال الصورة وتنقله لنا نقلا مؤثرا وتجعلنا نتعاطف مع الشاعر ونشاركه التجربة.

وها هو ذا الشاعر في موطن آخر من القصيدة يعرض علينا الحقائق لنقبل نحوها ببصرٍ واعٍ وخيالٍ يقظ نشيط، فيبين أن الحلم

فضيلة من الفضائل السامية، ليترجم عن مشاعره المضطرمة التى انبعثت من صدر يقتلج بالمهموم، ويضطرم بالأحزان تبعا للمشاهد التى رآها فى حياته.

كل ذلك نلمسه من خلال قوله:

لا يَحْسُنُ الحلُم إلّا فى مواطِنِهِ ولَا يليقُ الوَفا إلاَّ لِمن شَكَرا

وتصريحه بكلمة (فى مواطنه) تحمله بين طواياها معانى كثيرة وكأنى بالشاعر قد آثر الإيجاز فى الحديث فى هذه المواطن، ولعله متأثر ببعض معاصره فى إيثار التعبير بالإيجاز من مثل

"... وأعلم أن الإيجاز إذا كان كافيا كان التطويل غثاً، وإن كان التطويل واجبا كان التقصير عجز ..."(١).

وليترك للقارئ والسامع المجال لمعرفة واستقصاء هذه الفئة من الناس ومن هذه المواطن: وقت الحَرب والتعرض للإهانات والاعتماد على الحرمات وما يتصل بالعرض والكرامة والعزة، وغيرهم ممن يرون الحلم جبنا ويعدونه خوفا.

وأن الإكرام يجب أن يكون لمن يشكر ويقابل الإحسان بمثله.

ويجيء الشطر الثانى مفسرا لمقصد الشاعر فى البيت الأول:

ولَا يليقُ الوَفا إلاَّ لِمن شَكَرا

ليبين أن الوفاء عاطفة سامية لمن يتجمل بها، وهى من الصفات المحببة عند العرب قديما.

ويعاود الحديث تارة أخرى عن العُلا، فيبين أن من يسعى

---

(١) البديع فى نقد الشعر لأسامة بن منقذ ص ٢٩٨/ طبع البابى الحلبى سنة ١٩٦٠م.

للبحث عن العلا ينبغى أن يحافظ على شرفه وكرامته حتى ينال ما يتمناه من علا ومن مجد، وأن يسلك السبل الصحيحة للوصول إلى الهدف المرجو وفى التعبير بقوله: أطاع الدهر ما أمر، استعارة موحية إذا صور الدهر بإنسان عاقل يستجيب لكل ما يوجه إليه من أوامر وحذف المشبه ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو "الطاعة" على سبيل الاستعارة التصريحية، وليترك الخيال المجال الفسيح ليشارك فى رسم صورة مثلى للإنسان العاقل الذى ينظر إلى الأمور بعقلانية وروية وبالتالى يستحق النجاة من الدهر.

وينتقل بالقارئ خلسة ليصل من هذا وذاك إلى الحديث عن الملك الصالح ويرسم صورا لشخصيته القوية الهيّابة، فكأنه أراد أن يقول: ليكن أمامك أيها القارئ صورة واضحة المعالم بارزة على الطريق إنه الملك الصالح الذى عرف بالجد وبالقدرة على اجتياز الصعاب (المرهوب سطوته).

ويجيء الشطر الثانى لضفى على الصورة طابع الرهبة بقوله:

فَلْو تَوعَّدَ قَلْبَ الدَّهر لا نْفطَرَا

وليفيد التصوير الشاخص بما فيه من الاستعارة بالكناية، وتخيره للفظ "انفطرا" الذى يؤكد صرامة الممدوح فى غير هواده.

وتلمس ذلك بوضوح فى قوله فى البيت التالي:

لمّا رَأى الشَّر قد أبدَى نَوَاجِذَهُ والغدْرَ عنْ نابهِ لِلْحرب قد كَشَرَا [1]

ليجعل الشر بمثابة حيوان مفترس يكاد ينقض على غريمه وينتقم لنفسه.

---

(١) أيدى: أظهر، النواجذ: الأضراس، وهى أربعة، أو هى الأنياب، أو الأضراس التى تلى الأنياب، جمع ناجذ، والنجذ: شدة العض بها وكشّر: عبس.

وها هو ذا قد أبدى نواجذه وبدت عليه إمارات الغضب

وللخيال هنا دور كبير فى تهويل الصورة وإثارة الفزع والرعب فى النفوس[1] ولكل من عدته نفسه بشئ، ويؤكد ذلك الشطر الآخر من البيت

والغدْرَ عنْ نابهِ لِلْحرب قد كَشَرَا

حقا إن روح الاعتزاز تبدو واضحة جلية فى هذه الأبيات وهى روح منبعا ما يرى عليه الممدوح من قوة ومن جبروت، ومن استبطان الشاعر للمشاعر الكامنة فى نفسه، ولعله أودع شعره خلاصة ما تقع عليه عيناه، وربما كشفت عن خليقة من خلائق الممدوح، ويدع الخيال المجال ليأخذ فى تفصيل أجزاء الصورة ذات الألوان القاتمة لتطل علينا من علٍ بروح وثّابة وهمة عالية، ويجئ البيت التالي

رأى القِسَّ إناثًا فى حَقِيقتَها فعافها واستشارَ الصارمَ الذَكَرَا [2]

إنه تيخير السيوف الفتاكة ويقدر على أعدائه بدون هوادة، وفى قوله:

رأى القِسى إناثًا فى حَقِيقتَها

استعارة بالكناية نقلت إلينا شخصية الممدوح وقت لقاء الأعداء والتهيئة لخوض المعارك، والوقوف صفا واحدا بدون هيابه ولا وجل.

---

(١) الخيال الشعرى فى شعر الوصف عند البحترى / ٢١٧ وما بعدها بتصرف.

(٢) القسي: جمع قوس، التى تقذف السهام، عافها: كرهها وزهد فيها، الصارم: السيف القاطع القوي، والذكر: أبيس الحديد وأصلبه، واستشاره فى الأمر عرضه عليه، ليأخذ رأيه فيه، المعنى: يريد أن يقول: أنه رجل حرب يستعد لمقابلة أعدائه بأقوى الأسلحة غير هيّاب ولا وجل.

إنه يرفض حتى مجرد الاستعانة بالقسى لأنها فى نظره رقيقة ضعيفة لا تؤدى الهدف المنشود، ولذلك "عافها" أى تركها واستبدل عوضا عنها السيوف القاطعة القوية التى تصنع من أجود أنواع الحديد، وهنا تتجلى دقة الشاعر فى اختيار الألفاظ المناسبة للموقف الشعورى المراد التعبير عنه فى القصيدة فى مثل قوله:

القسي، إناثا، عافها، استثار، الصارم

إنه يشخص السيف فيحيله إلى إنسان يستشيره فى الأمور الحسام ويستعين به فى مواجهة الصعاب، وينقل إلينا هذه المشاهد ليتملاها الخيال عبر هذه الصورة الكلية المتمثلة فى اللون البادى فى لمعان السيوف القاطعة فى الحركة التتابعة من السيوف الجديدة التى أعدها الممدوح للقاء الأعداء، والأصوات المتتابعة الصادرة من الخوف والفزع الذى لحق بالأعداء، وفوق ذلك كله: المدّات الطويلة التى انتقاها الشاعر فى مثل قوله: إناثا، عافها، استثار، الصارم، الذكرا التى تشعرنا بضخامة المسئولية الملقاه على عاتق الممدوح وأنه دائم التفكير فيها ليل نهار.

وفى الأبيات تبدو لنا دقة الشاعر فى جودة التصوير التى جعلت الجماد كائن حى ينبض بالحياة.

ويعود الشاعر فيتغنى بتعداد سجايا الممدوح بقوله:

يَكادُ يُقرأُ مِنْ عُنوانِ هِمَّتِهِ ... ما فى صحائف ظهرِ الغيبِ قد سُطِرا

كالبحر والدهر فى يومى ندى وردى ... والليث والغيث فى يومى وغى وقرى[1]

(١) الندى: البلل وما سقط فى آخر الليل من ماء، ويطلق مجازا على الكرم والردى: الهلاك مصدر ردى، كرضي: يروى ردى بمعنى هلك، والقرى: إكرام الضيف مصدر قرى الضيف يقرى به قرى بالكسر، وقد كرر معنى الحرب والكرم يذكرهما فى الشطرين ليبين أنه شجاع كريم.

فبين أنه عرف من بين أقرانه بخصافة رأيه، وأنه يضع الأمور فى نصابها وعبر لذلك بقوله (همته) وقوله أيضا:

ما فى صحائف ظهرِ الغيبِ قد سُطِرا

وكأنى بالشاعر هنا قد تملكته عاكفة الإعجاب بالممدوح فأضفى عليه من الجلال ما جعله محط الأنظار ومبلغ الآمال.

إن الأمر فى التخيل لم يكون مقصورا على رؤية المشاهد رؤية[1] عابرة خاطفة تكتفى بالأمر الظاهر العام،وإنما كان ذلك رؤية متفحصة، كشفت عن دقائق الجمال فى تعداد هذه الخصال التى تدلنا على براعة الشاعر فى رسم هذه الخلال ليطل علينا بصياغة جديدة طريفة.

هذا، وكان للخيال دوره الفعّال فى نقل المشاهد إلى العيان واستحضار الصور بشكل مؤثر فأفاض فى عرض الصور إفاضة نقلت الحسن المكتمل فى هذا الممدوح نقلا لا تخطئه العين لو أتيح لها أن تراه.

الموسيقى فى القصيدة

من المعلوم لدى الدارسين أن الموسيقى فى الشعر تنقسم إلى قسمين:

أ- الموسيقى الخارجية: وتتمثل فى الوزن والقافية.

ب- الموسيقى الداخلية: وتتمثل فى الانسجام والتآلف بين الكلمات بعضها ببعض[2].

---

(١) الخيال الشعري: ٢٩٨، ٢١٩ وما بعدها.

(٢) موسيقى الشعر ٧٠ وما بعدها.

والشاعر المبدع هو الذى يمتلك القدرة على تجويد لفظه والتفنن فى نظمه ليتحقق الجرس المنشود، وتأتى الألفاظ معبرة عن معانيه، ومصوره بإيقاعها لمضامينه المناسبة فيربط بين العاطفة وموسيقى شعره برباط وثيق يجذب القارئ، فتصغى له الأسماع وتطرب له القلوب "فجمال الشعر فى أن يهيج الشعور والعاطفة، لا أن يخاطب العقل والمنطق، وليس أبلغ من الموسيقى فى إثارة الشعور"(١).

الموسيقى الخارجية:

ومن خلال تتبعنا للموسيقى الخارجية فى قصيدة الشاعر صفى الدين الحلى، نجد أنه اختار لقصيدته بحر البسيط، لأنه يتسع بحركاته وسكناته للأغراض التى ضمنّها الشاعر قصيدته ولا شك أن المديح من الأغراض الشعرية التى يحشد فيها الشاعر المعانى الكثيرة والأفكار المتنوعة التى تشهد لممدوحه بطول الباع فى محاسن الرجال ومواقفهم، وترقى به إلى مستوى أنداده.

وأجزاء البحر كما نعلم:

مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن . مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن

مكررة مرتين حال التمام، وهو بهذا الامتداد يعطى الشاعر فسحة كى يقول ما يريد ويبث فى تضاعيفه ما أحسّ به فنا، وإن لم يوافق الواقع وذلك لأن بعض النقاد يؤثر القول بعبارة: أعذب الشعر أكذبه"(٢).

---

(١) شعر التفعيلة والتراث د/ النعمان القاضى / ١٥ وما بعدها.

(٢) موسيقى الشعر د/ إبراهيم أنيس / ٧١ وما بعدها، أسس النقد الأدبى د./ أحمد بدوى / ٦٦٧، ٦٦٨.

وتتمثل الموسيقى الظاهرة فى اختياره القافية، وكأن بإمكانه أن يختار لقصيدته ضربا مقطوعا أو صحيحا تأتى فيه (فاعلن) دونما (خبن) لكنه آثر المخبونة التى يجتمع فيها ثلاث متحركات بعدها ساكن وهذا يتصل بما فى نفسه من معنى ويبين من طرق خفى بأن المواقف متلاحمة والأحداث متراكبة كما يتراكب الحب فى الثمر، كما اختار لرويّه حرف الراء، وهو يتميز بالرقة، وهو أيضا من الحروف الرخوة التى ترفق تارة وتفخم أخرى.

كما تتمثل الموسيقى الخارجية أيضا فى التصريع، وهو موافقه العروض للضرب ما بين شطرى البيت فى القصيدة، وللتصريع جماله فى تقوية الجرس الموسيقى[1] البادى فى القصيدة، وعلى سبيل المثال قوله فى مطلع القصيدة.

لاَ يَمْتَطى الْمَجْدَ مَنْ لَمْ يَرْكَبِ الخَطَرا ولا ينَالُ العُلاَ مَنْ قَدَّمَ الحَذَرَا

ونلاحظ أن الشاعر هنا سلك مسلك التقفية وهى موافقة العروض للضرب دون زيادة أو نقص عما تستحقه من الأحكام العروضية ومن الموسيقى الظاهرة فى القصيدة حسن التقسيم المتمثل فى قوله:

"لا يمتطى المجد"، "ولا ينال العلا".

فإن تركيب الجملتين فيها واحد وبناؤهما بناء منتظم، يسهل على الدارس فهمه، وعلى المتأمل تذوقه، لأن بناء الجملتين على نسق واحد ومثل ذلك قوله: "لا يبلغ السؤل"، وقوله فى البيت "ولا

---

(١) ألوان البديع فى ضوء الطبائع الفنية والخصائص الوظيفية /١٤٦، وما بعدها، العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده جـ١/١٧٤، وما بعدها.

تتم المنى" وقوله"، لا يحسن الحلم إلاّ فى مواطنه"، وقوله فى الشرط الثانى من البيت: "ولا يليق الوفا إلاّ لمن شكرا".

وقوله أيضا:

كالبحر والدهر فى يومى ندى والليث والغيث فى يومى وغى وقرى وردى

وقد جاءت القافية فى القصيدة مطلقة[1]، أى تحرك حرف رويها ويوحى ذلك بالحركة الاتساع مما يناسب غرضها ويتناسب وصفات الممدوح فهو متقدم ناهض متحرك وليس براكد ساكن.

ثانيا: الموسيقى الداخلية (الخفية):

تحدث الأدباء والنقاد عن الموسيقى الداخلية، والتى سماها بعضهم الخفية ونستطيع القول بأنها فى حاجة إلى مزيد دراسة وفضل بيان وفى هذه القصيدة نحاول الوقوف على بعض أسرار الموسيقى الداخلية التى تكمن فى تناسق الكلمات وتناسبها حى تبدو كأنها لوحة فنان مبدع أو صفحة جدول خال من الأكدار والزبد الذى يذهب جفاء، ولنا أن نقف على بعض هذه الأسرار فى ضوء هذه التركيب الشعرية من القصيدة، ففى كلمة "يمتضى" رقة وعذوبة نابعة من جرسها، صادرة من لفظها، ومرجع ذلك إلى حسن اختيارها ولنا أن نوازن بينها وبين مالها من مرادفات مع معناها الأصيل الذى اشتقت منه وهو المطية، وتتجانس هذه اللفظة مع كلمة المجد التى بعدها ومرادفها معها فى شطر البيت الأول "يركب"، وكلمة يركب لا تتسع موسيقاها إلا بصحبتها للفظة بعدها،وهى "الخطرا" ولو وضع الشاعر "يركب" مكان "يمتطى" والعكس فقال:

لَا يَمتَطى الْمَجدَ منْ لَمْ يَرْكَب الخَطَرا

---

(١) موسيقى الشعر / ٢٨٠، وما بعدها.

لما تغير الوزن ولا المعنى، فالمعنى واحد وهو = أن طالب المجد لابد له من مواجهة الأخطار، وإنما تتغير الموسيقى فالأذن تستشعر الراحة فى ظلال "يمتطى المجد" ولا تستشعر الراحة فى ظلال قوله: "لا يركب المجد"(١).

ومن يقرأ البيت الثانى يجد تعبيرا شائعا لكنه فى الثانى : يصبح ذا دلالة موسيقية، فهو أشبه ما يكون بجرس وضعه صاحب لحن جميل، ويستشعر ذلك من يقرا قوله:

ومَنْ أرَادَ العُلاَ عَفْواً بِلاَ تَعَبٍ قَضى ولم يَقْضِ منْ إدْرَاكِها وَطَرَا

ومثل ذلك التنكير الذى يفيد بلاغة العموم والشمول ومطلق التغنى وهو معنى محمود يزكيه البيت والمعنى الذى أراده الشاعر، لكن فيه همسا موسيقيا منبثقا من الطاء التى هى من حروف الإطباق(٢)، تعلو فتعلو معها المعانى لكنها تتدرج شيئا فشيئا وتخف حدتها مع وجود الراء، فكأن فى هذه اللفظة، شيئا من القسوة، وشيئا من اللين، ولا ثقل على الأذن من جانب القسوة متى صاحبها اللين، فكأنها خصام مصحوب بصلح أو كما يقول: الوالد الذى يضرب ولده إنما أقسو عليه أحيانا ليزدجر فكأنه عندما يقسو عليه بيده ويخفف دمعه بيده الأخرى ليلطف من قسوته وليشعره بأثر تأديبه له.

وكذلك التأمل فى لفظتين متجانستين تجانس العود والظل والنظير ومماثلة، وهما: " الشهد والنحل " فى قوله: "لابد للشهد من نحل يُمَنّعه" حيث إنهما من وادٍ واحد لا تستنفر به أذن السامع،

---

(١) موسيقى الشعر د. إبراهيم أنيس ص ١٢، وما بعدها ط الخامسة دار الطباعة الحديثة القاهرة.

(٢) المصدر السابق ٢١، وما بعدها.

ولا عين القارئ وإنما تبعث على الإعجاب والاهتمام والارتياح[١].

ويرتقى بنا الشاعر فى موسيقاه، كما يرتقى البلاغى فى صوره، فالشهد والنحل من الأمور الحسية بينما تجد فى الشرط الثانى كلمتين من واد المعاني، وهما: "النفع والضر" حيث قال الشاعر:

لاَ يجْتنى النَّفْعَ منْ لم يَحْمِلِ الضَّرَرَا

مع أن للبلاغة موقفا يتمثل فى الطباق بين "النفع، الضر"[٢]. والطباق يؤدى معناه فى وضوح وجلاء وتقويه إذا كان غير متكلف، وهو فى قصيدتنا غير متكلف، ومراد البلاغيين جميل مفيد وذلك لأن المحسنات البديعية ليست مجرد زخارف لفظية يحلى بها الكلام، وإنما وراءها من المعنى ما يجعلها تسمو فوق اللفظ إلى مدارج المعانى الرفيعة يكشف اللثام عن معنى خفي، أو توضيحه فى صورة جليّة، وهناك ارتباط أشبه برباط الحرير الناعم الوديع بين الكلمات الأربع، فالشهد يتناغم مع النفع معنىً وموسيقى، النحل يتناغم مع الضرر معنى وموسيقى.

فالموسيقى إذن مستمدة من بناء البيت على هذا التركيبالعجيب الذى سلك فيه الشاعر مسلك بناء ماهر أقام صرحا على أساس من الخبرة والدراية فرفع أعمدته وأتم جداره، ولم ينس زخارفه وألوانه، وقد تدرج الشاعر فى بناء البيت كما تدرج البناء فى إشادة الصرح فانتقل من الحسى إلى المعنوى مراعيا فى

---

(١) موسيقى الشعر ١٣، وما بعدها، ٢٨.

(٢) المثل السائر ج٣ / ١٤٣.

ومقتضى كلام البلاغيين أن الطباق جاء فى البيت ليبدد السأم عن القارئ ويثير فيه الرغبة للقراءة والتأمل.

ذلك الفطرة التى جبل عليها البشر، ونفوس البشر جميعا تميل إلى الحسى أولا لتتدرج من خلاله إلى المعانى المعنوية البعيدة، وهذا التدرج فى المعانى يصبحه تدرج موسيقى أيضا وهو الانتقال من مستوى إلى مستوى.

ولله در الشاعر حيث استعمل: لابد، وهو قد يبدو تعبيرا دارجا يستعمله كثير بين الناس فى حياتهم، وقل أن نجد إنسانا يستعمل قوله" يجتني" فهذه تدرج أيضا يجعل الشاعر يستميل الأوزان كما يستميل الوجدان لمتابعته وقراءة قصيدته وهذه ظاهرة عمد إليها الشاعر وحرص عليها، ففى صدر البيت الرابع قوله: "لا يبلغ"، وفى أول الشطر الثانى منه قول "لا تتم"، وفى أول الخامس قوله "أحزم" أسهل من التعبير بـ لا يقرب الوردَ، وهو تدرج يستميل به الأذان ويؤثر فى الوجدان.

وهذا التدرج حرص عليه الشاعر فى القصيدة كلها، كما تتمثل الموسيقى الداخلية فى الألفاظ الموحية التى تشعّ منها المعاني،كما تشع الأشعة التى لا تتناهى من الشمس المشرقة.

ومن هذه الألفاظ الموحية، قوله: معتبرا التى تفيد التأسى وشيئا من الندم، وقوله: (عثار) الذى يوحى بسوء الحظ مع وجود العثرات المادية، وإسناد العثار إلى الرأى تركيب جديد يفوح بشذى التجديد.

كذلك قوله: "يهون" الذى ينساب رقة وعذوبة ويبشر بالأمال لدى اليائسين بأن قضاء الله نافذ لا محالة، فلا يصعب على نفوسهم أن لهم رأيا مخالف لقضاء الله.

ومما قدمنا من نقاط بارزة المعالم، نستطيع القول على وجه

الإجمال أن الموسيقى الداخلية تتمثل فى هذه القصيدة فى مظاهر متعددة من التناسق بين الألفاظ، والتدرج بين المعاني، واختيار الألفاظ الموحية التى تصنع مزيجا من اللفظ والمعنى معا، وهذا يجعل الآذان معلقة بالجرس الذى بنى عليه الشاعر قصيدته[١].

وما من شك فى أن مثل هذه القصيدة قد اتضحت فيها معالم فنية بارزة جعلتها على الطريق جنسا شعريا يحاكى فى بنائه، وإن تجددت المعانى فى الحياة والألفاظ فلا غنى لمثلنا عن قراءاتها والتزود بهذه المعانى الواردة فيها.

نظرات نقدية فى النص

من المعلوم لدى الدارسين والنقاد أن النقد: تمييز الجيد من الردئ فى العمل الأدبي[٢].

وتقتضى الدراسة الأدبية المنصفة أن نبين محاسن القصيدة أو مساوئها دون تعصب أو ميل إلى هوى، ويمكن أن تكون المحاسن فيما يأتي:

١) قدّم الشاعر صفى الدين الحلى حكما مرتبطة بممدوحه الملك الصالح حتى لا يظن القارئ أو السامع أن الشاعر أطال فى مقدمته دونما ارتباط بين هذه المقدمة وما خص به ممدوحه من صفات جليلة فى معناها، إذ من الواضح أن كل حكمة قالها تحمل صفة أو صفات من الهمم العالية، ولا شك أنه كان على

---

(١) النقد الأدبى الحديث / ٢٨٩ وما بعدها.

(٢) أسس النقد الأدبى د. أحمد أحمد بدوى / ص ٣ وما بعدها.

وعى بأن هذه الخصال من صفات ممدوحه[١]، أو مما ينبغى أن تكون فيه – وأن الشاعر صادق فيما جاء به من صفات جليلة.

٢) حرص الشاعر على اختيار الأساليب العربية الفصيحة، حيث لم يركب متن الضرورة، فيخالف قواعدها أو يجنح إلى الركاكة، فيأتى بتراكيب سطحية أو متبذلة، وهو يحاكى الأساليب العالية فى الفصاحة.

ألا ترى إلى استعمال أسلوب القصر فى قوله:

وَلاَ تتُّم المُنى إلاَّ لِمَنْ صَبَرا

وقوله أيضا:

لا يقْرَبُ الوِرْدَ حتَّى يعرِفَ الصَّدَرا

فذلك تأسٍ بقوله عز وجل: ﴿"وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [٢]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلاَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الجَمَلُ فِى سَمِّ الخِيَاطِ﴾[٣].

والقصر من أقوى الأساليب العربية فى التعبير عن الأفكار.

وبالرجوع إلى القصيدة تجد الشاعر يقول:

مَنْ دَبَّرَ العَيْشَ بالآراءِ دَام لـه

---

(١).وما جاء من روايات تدلنا على احتفاء آل أرتق (عائلة الممدوح) بالشاعر ويدلنا أيضا على أنهم أصحاب فضل فى تقدم الأمة ووقوفها فى وجه التيار، ويروى أيضا: أن الشاعر صفى الدين الحلى عندما قدم إلى ماردين نحو ساحة الملك المنصور نجم الدين الأرتقى تلقّاه بالترحاب وأجلسه مجلسا طيبا، فلم يجد صفى الدين له جزاء سوى الثناء عليه بالمدائح الطيبة.

ينظر فى ذلك البدر الطالع / ٢٣٨ وما بعدها.

(٢) سورة آل عمران، آية ١٤٤.

(٣) سورة الأعراف أية ٤٠.

فقد جاء بفعل الشرط وجوابه ماضيين وهو فى هذا يحاكى الحديث الشريف قال رسول الله "من قام ليلة القدر غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر"(١).

وكما لجأ إلى التضمين فى قوله:

لمّا رَأى الشَّر قد أبدَى نَوَاجِذَهُ والغدرَ عنْ نابهِ لِلْحرب قد كَشَرَا (٢)

والجواب فى البيت التالي:

رأى القِسى إناثًا فعافها

هذا ومما يعاب على الشاعر قوله:

وَلا ينالُ العُلا إلاَّ فتًى شَرُفَتْ خِلالُه فأطَاع الدَّهرُ ما أمَرَا

كالصَّالحِ الملكِ للرُهُوبِ سَطْوتُه فَلَو تَوعَّدَ قَلْبَ الدَّهر لا نْفطَرَا

ففى قوله: أطاع الدهر ما أمرا، خيال ساذج

وَقوله أيضا:

فَلَو تَوعَّدَ قَلْبَ الدَّهر لا نْفطَرَا

غلبت عليه غلبه اللفظ دون أن يلمس جوهر الحقيقة،وهى أن هناك قلب ينفطر.

وفى وقوله أيضا:

بالبيضِ يَقْدَحُ من أغطافِهَا الشرَرَا

فالشرر لا يقدح، فكأن عظم صغير لا قيمة لتعظيمه

---

(١) الحديث رواه البخارى عن أبى هريرة / صحيح البخارى ج/٣. ص ٥٨. كتاب الصوم، باب فضل قيام رمضان ط. كتاب الشعب.

(٢) أيدى: أظهر، النواجذ: الأضراس، وهى أربعة، أو هى الأنياب، أو الأضراس التى تلى الأنياب، جمع ناجذ، والنجذ: شدة العض بها وكشّر: عبس.

وفى قوله:

قَدْ يُقَالُ عِثَارُ الرَّأى إن عَثَرَتْ

فإن دخول "قد" على الفعل المضارع يدلنا على التقليل مما يجعل لذلك تأثير على الفكرة التى تناولها الشاعر فى البيت.

وفى قوله فى الحديث عن قوم الشاعر واتباعه:

من آل أرنق المشهور ذكرُهُمُ إذا كان كالمسك إن أخفيته ظهرا

فالتعبير فى الشطر الثانى شائع ومتداول، إن التاريخ ليسجل فى صفحات من نور السيرة العطرة لهولاء القوم، وهى لا تخفى على الناس كالمسك الذى يعرف من بين الناس برائحته الذكيّة، وفى رأينا أن هذه المآخذ التى جاءت فى القصيدة لا تغض من قدر الشاعر صفى الدين الحلي، وهو الذى صال وجال وأتى بغرر القصائد وأنه كان معدودا بين شعراء عصره وكبار مثقفيه.

ولقد جاء من شعره ما يفيد بأن "... كلام الإنسان ترجمان عقله ومعيار فهمه وعنوان حسه، والدليل على كل أمر لولاه لخفى منه، وبحسب ذلك يحتاج إلى فضل التثقيف، واجتماع اللب عند النظم والتأليف"(١).

---

(١) سر الفصاحة / للأمير أبى محمد عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجى الحلبى / ٢٩٠. ط/ أولى / دار الكتب العلمية / بيروت لبنان ١٩٨٢م – ١٤٠٢هـ.

الصدق الفنى فى النص

من خلال دراستنا لقصيدة الشاعر صفى الدين الحلى، وتتبعنا لمراحل حياته الأولى، واتصاله بعائلة الممدوح يتبين لنا أن القصيدة تفصح عن عميق شعوره وإحساسه بالود والعرفان لآل "أرتق" الذى قدموا له كل العون والمساعدة، واستطاعوا أن يرتقوا عن دائرة آلامه وأحزانه، فنظم هذه القصيدة بدافع من مشاعره الفيّاضة الصادقة، والصادرة عن اقتناع ذاتي، ولم يقصد بذلك أن ينال رضاهم، ولكن ليغذى شاعريته "بجميع الأفكار النبيلة، ودواعى الإيثار التى تنبعث عن الدوافع المقدسة، وأصول المروءة النبيلة ..."[١].

يدلنا على ذلك أن الشاعر صفى الدين الحلى قدّم هذه القصيدة إسداءا للجميل متحدثا عن الملك الصالح وعما تميّز به من خصالٍ فريدة، ولم يكتف بهذا، بل ألهمته ملكته الشعرية وإحساسه المرهف بأن يبين أن هذه الخصال ليست بجديدة على آل "أرتق" "عائلة الممدوح" فهو فرع من البيت الطيب الذى ينتمى نسبه إلى أصل عريق.

ومن ثم واتته الأفكار والخواطر طواعية لأن يفصح عن مكنوناته، ويصوغها فى إطار ملائم لتجربته وإحساسه بأنه فى ركن أمين[٢]، مما جعله ينظم ديوانا كاملا باسم "درر النحور فى

---

(١) النقد الأدبى الحديث د. محمد غنيمى هلال، ٣٦٣ وما بعدها.

(٢) فى ص ٣٩ من هذا البحث إشارة إلى المرتبة الرفيعة التى عرفت بها هذه الأسرة وكذلك الممدوح الملك الصالح شمس الدين بن المنصور، وأنه لُقّب بالملك الصالح لأنه شارك فى محاربة الإفرنج الصليبيين.

ينظر: الأدب فى العصر المملوكى ١٠٦ وما بعدها.

مدائح الملك المنصور" ويقدمه للملك نجم الدين غازى بن أرتق وابنه الملك الصالح[١].

وقوله أيضا فى إطار الحديث عن آل "أرتق" فى القصيدة التى نحن بصدد الحديث عنها:

من آل أرتق المشهور ذكرهم ... إذا كان كالمسك إن أخفيته ظهرا

الحاملين من الخطى أطوله ... والناقلين من الأسنياف ما قَصَرا[٢]

وبعد ما قدمنا يتضح لنا أن الشاعر التزم بالصدق الفنى فى التعبير عن حقيقة أصيلة رجع فى تصويرها إلى ذاته، وإلى وجدانه[٣]، ونظم هذه القصيدة ليترجم عن مكوناته، وليفصح عن الصلة والصداقة الحميمة التى جمعت بينه وبين أبناء عائلة أرتق، لسنوات طوال ومن هنا كانت دعامة الصدق الفنى لدى الشاعر وسيلة لتصوير المعانى النبيلة لذاته وإثارة للفكر والخيال للتجربة التى أحسّ بها[٤]، وسعى لإبراز معانى الوفاء والجلال والهيبة، دون خداع أوزيف ليرقى بهذه العائلة من بين مصاف النبلاء، ولذلك جاءت القصيدة ملائمة للموقف الشعورية نصفى الدين الحلىّ.

الذى سيطر على وجدانه وقت نظمه للقصيدة فان كالرسام الذى اختار للوحته ما يلائم منظرها وموضوعها و"ويعبر عما هو جوهرى فيها"[٥].

---

(١) عصر الدول والإمارات د./ شوقى ضيف، ٣٥٦، وما بعدها.

(٢) ينظر ص ٢٠ من هذا البحث.

(٣) النقد الأدبى الحديث ٢١٥.

(٤) المصدر السابق ٢٢١.

(٥) المصدر السابق ٢٨١، ٢٥٧

بعاطفة جيّاشة، وبشكل متميز، (فالشعر يعتمد على شعور الشاعر بنفسه وبما حوله شعورا يتجاوب هو معه، فيندفع إلى الكشف فنيا عن جنايا النفس أو الكون استجابة لهذا الشعور، وفى كفة هى صور)[١].

ولقد جاءت القصيدة حاملة بما حوته من صدق الوجدان وما أوتى من ملكة شعرية مرهفة، استطاع من خلالها أن ينقل هذه المشاهد التى أحسّ بها وأضفى عليها من أخيلته ما يجعلها ترق إلى مصاف التجارب الشعرية الحقيقية التى كشفت عن خلال الفكر الإنسانى وعمقه، فهى بحق إضافة ثريّة إلى المكتبة الأدبية العتيدة.

الوحدة العضوية للنص

ويقصد بالوحدة العضوية فى القصيدة بعامة الاتساق الكامل والتلاحم القوى بين وحدة الموضوع، ووحدة المشاعر التى يثيرها الموضوع وما يستلزم ذلك من أختيار للصور، وترتيب للأفكار ترتيبا تتقدم به القصيدة شيئا فشيئا حتى تنتهى إلى خاتمة يستلزمها أيضا ترتيب للأفكار والصور، حتى تبدو أجزاء القصيدة متكاملة كالبنية الحية، ولكل جزء منها وظيفته المنوط بها[٢].

وقد تمثلت عناصر الوحدة العضوية فى قصيدة الشاعر صفى الدين الحلبى وذلك لأن الموضوع الذى تناولته القصيدة واحد، فهى من بدايتها فى مديح الملك الصالح شمس الدين بن المنصور، وقد استهلها بقوله:

---

(١) المصدر السابق ٢٥٧، ٢٨١.

(٢) النقد الأدبى الحديث ٣٧٣.

لَـا يَمتَطـى الْمَجْـدَ مـنْ لَـمْ يَركَـب ولا ينَـالُ العُـلاَ مَـنْ قَـدَّمَ الحـذَرَا(١)

ومَـنْ أَرَادَ العُـلاَ عَفْـواً بِـلاَ تَعَـبٍ قَضى ولم يَقْضِ منْ إدْرَاكِها وَطَرَا(٢)

وقد بينّا فى هذا المبحث أن المقدمة التى استهل بها الشاعر قصيدته مرتبطة بالحديث عن الشاعر ارتباطا وثيقا(٣).

والأبيات فى القصيدة جاءت متصلة الأجزاء بعضها البعض بالإضافة إلى استيفاء كل فكرة فى النص فى موضعها المحدد لها مما يدلنا على أن الشاعر استطاع أن يرسم منهج القصيدة، وأن يعاود النظر فيه قبل بدء الكتابة أولا وأخيرا، ليشفعنا بهذا التصوير العضوى الحى لتجربته حتى انتهى إلى خاتمة طبيعية لتصويره، فعلى سبيل المثال قوله فى مديح الملك الصالح بعد المقدمة الحكمية التى استهّل بها قصيدته.

كالصَّـالحِ الملـكِ لـلرّهُوبِ سَـطْوتُه فَلَـو تَوعَّـدَ ثَقْـبَ الدّهـر لا نْفطَـرَا

لمَـا رَأى الشَّـر قـد أبـدَى نَوَاجِـذَهُ والغـذرَ عـنْ نابـهِ لِلْحـرب قـد كَشَـرَا (٤)

---

(١) والقصيدة لصفى الدين الحلى فى مديحه للملك الصالح شمس الدين.

امتطى المجد: اتخذه مطية، والمطا: الظهر ومنه قبل للبعير مطية، فعيلة بمعنى مفعولة لأنه يركب، والناقة مطية لأنه يركب مطاها أى ظهرها، والمطو: الجد والإسراع فى السير يقال مطا الرجل يمطو مطوا إذا جدّ فى سيره أو سار سيرا حسنا، والعلا: جمع العليا ومعناها: الشرف والفضل، والمعالى والمكارم، والمجد، والحذر: الخوف.

والمعنى: أن الإنسان لن يتمكن من الوصول إلى المجد والشرف إلا بالتعب والتعرض للأخطار والمتاعب.

(٢) عفوا: أعطيته المال عفوا: بغير مسألة، وقضى: مات، والوطر: الحاجة، أو الحاجة لك فيها هم وعناية.

والمعنى: أن من طلب الرفعة من غير كد ولا تعب يظل محروما من الحصول على غايته حتى يموت دون تحقيقها فالتمنى وحده لا يحقق شيئا.

(٣) ينظر ص ٣٩ من هذا البحث.

(٤) أيدى: أظهر، النواجذ: الأضراس، وهى أربعة، أو هى الأنياب، أو الأضراس التى تلى الأنياب، جمع ناجذ، والنجذ: شدة العض بها وكشّر: عبس.

رأى القِسيَّ إناثًا في حَقِيقَتِها ... فعافها واستشارَ الصارمَ الذَّكَرَا [1]

يكادُ يُقرأُ من عُنوان هِمَّتِهِ ... ما في صحائف ظهرِ الغيبِ قد سُطِرَا

وهكذا، ثم ينتقل إلى الحديث عن نسب الممدوح ويبين أن لهم باعا طويلا في المجد، وفي الكفاءة القتالية، وأن سيرتهم الفطرة معروفة بين الناس، ويواصل حديثه عن الصعاب التي تجشّموها في حياتهم، إلى أن يصل إلى الخاتمة واتلى يقول فيها:

تبغي صنائعهم في الأرض بعدهم ... والغيثِ إنْ سار أبقى بعده الزهَرَا

ليبين أن عائلة الممدوح (الملك الصالح) ستبقى أعمالهم الطيبة شاهدة عليهم بعد رحيلهم، مثلهم تماما كالغيث الذى يذهب ويعقبه الزهر الجميل دليلا على نزوله وسقياه للأرض، وهى نهاية جميلة تبعث على النشوة والارتياح، ولا سيما وأنها آخر ما يبغى في الأسماع، (وربما حفظ دون سائر الكلام في غالب الأحوال"[2].

مما يدل على أن الشاعر تأثر بالمعايير الجمالية للشعر العربى الحديث.

---

(١) القسي: جمع قوس، التى تقذف السهام، عافها: كرهها وزهد فيها، الصارم: السيف القاطع القوي، والذكر: أبيس الحديد وأصلبه، واستشاره في الأمر عرضه عليه، ليأخذ رأيه فيه،

المعنى: يريد أن يقول: أنه رجل حرب يستعد لمقابلة أعدائه بأقوى الأسلحة غير هيّاب ولا وجل.

(٢)أسس النقد الأدبى ص ٣١٢.

فهرس المراجع

- أثر التشبيه فى تصوير الفنى: د. عبد البارى طه سعد
- أسس النقد الأدبي: أحمد أحمد بدوى ط. النهضة المصرية.
- ألوان البديع فى ضوء الطبائع الفنية والخصائص الوظيفية: محمد على الشافعي
- الأدب فى العصر المملوكي: محمد زغلول سلام ط. الهيئة العامة للكتاب.
- الأعلام: بسّام عبد الوهاب الجابى ط.دار العلم للملايين أولى سنة ١٤٠٧هـ/١٩٨١م
- الأعلام: خير الدين الزركلى – دار العلم للملايين – بيروت – لبنان.
- البارودى رائد الشعر الحديث: د. شوقى ضيف ط. رابعة دار المعارف
- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع: للقاضى العلامة محمد بن على الشوكاني القرن السابع.
- البديع فى نقد الشعر أسامة بن منقذ
- تاريخ الأدب العربي: عمر فروخ – دار العلم للملايين – بيروت لبنان خزانة الأدب
- الخيال الشعرى فى شعر الوصف عند البحترى : د. طه مصطفى أبو كريشه
- سر الفصاحة للأمير: أبى محمد بن سنان الخفاجى ط. أولى بيروت لبنان.
- صحيح البخارى للإمام ابن حجر العسقلانى: ط. كتاب الشعب.
- الصورة الأدبية فى القرآن الكريم: د. صلاح عبد التواب
- عصر الدول والإمارات: د. شوقى ضيف دار المعارف – القاهرة
- العمدة فى محاسن الشعر ونقده: لابن رشيق القيروانى – ط. خامسة دار الجيل بيروت – لبنان.
- فوات الوفيات والذيل عليها : محمد شاكر الكتبى بتحقيق د. إحسان عباس دار صادر.بيروت.
- فى الأدب الحديث: عمر الدسوقى – دار الفكر العربى – القاهرة
- فى النقد الأدبى: د. شوقى ضيف – دار المعارف – القاهرة
- المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين ابن الأثير بتحقيق د/ أحمد الحوفى وزميله – نهضة مصر.
- معجم المؤلفين : عمر رضا كحالة – دار العلم للملايين بيروت لبنان.
- من نوابغ الفكر العربي: صفى الدين الحلى – محمود رزق سليم ط. ثالثة دار المعارف – القاهرة.
- النقد الأدبى الحديث: محمد غنيم هلال، نهضة مصر، القاهرة
- نقد الشعر قدامة بن جعفر – بتحقيق كمال مصطفى – ط ثالثة – الخانجى سنة ١٣٦٧هـ ١٩٤٨م.
- موسيقى الشعر: د. إبراهيم أنيس – نهضة مصر

الفهـــرس

صفى الدين الحلى فى ظل البيئة ٨٤٢
١ – اسمه ونسبه ومولده ٨٤٢
٢ – ثقافته ومصادرها ٨٤٩
٣ – جوانب شاعريته ٨٥٠
٤ – عرض للنص الشعري ٨٥٤
٥ – دراسة تحليلية للنص ٨٥٨
٦– الموسيقى الشعرية فى النص ٨٧٦
٧– نظرات نقدية فى النص ٨٨٣
٨– الصدق الفنى فى النص ٨٨٧
٩– الوحدة العضوية للنص ٨٨٩
١٠– فهرس المراجع ٨٩٢
١١ – فهرس الموضوعات ٨٩٣

فهرس الجزء الأول

المقدمة: ٧

من المؤمنين رجال: ١٣

أ.د/ أبو ضيف مجاهد حسن

اليسر ورفع الحرج فى ضوء الكتاب والسنة ١٣٣

د/ رشاد على حسن

من الاتجاهات المنحرفة فى الفكر الصوفى ١٨١

د/ أحمد فهمى على محمد

العقيدة وأسرها فى سلوك الإنسان ٢٤٣

د/ محمد حسن المهدى

فهرس الجزء الثانى

اليهود وبولس الرسول شاؤل ودورهم فى تحريف المسيحية بعد عيسى عليه السلام: ٤٠٧

د/ أحمد رفاعى عبد اللاه

سد الزرائع وابطال الحيل عند الاصوليين: ٤٦٣

د/ محمود على مهران

القضاء وعقد الإيجارة بالفسخ ٥٢١

د/ آمال كامل عبد الرحمن

من أسرار التعبير البلاغى فى سورة المطففين ٦١٣

د/ فاطمة محمد محمد المهدى

من أسرار البلاغة فى سورة القيامة ٦٨٥

د/ مرفت فرغلى محمود عبد الحافظ

الأساليب البلاغية فى الأحاديث النبوية فى كتاب أسرار البلاغة للإمام عبد القادر الجرجانى ٧١٩

د/ سامية عبد الحميد عبد المجيد

الحكاية عند النحويين - عرض ومناقشة ٧٦٩

د/ نجاة عبد المولى أمين

صفى الدين الحلي وقصيدته ٨٣٩

د/ آمال محمود السباعى

رقم الإيداع بدار الكتب ٦٢٣١/ مارس ٢٠٠١م